إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق

موسوعة القيم ومكارم الأخلاق العربية والإسلامية

(٣٨)

طلب العلم

الباحث الرئيسي ورئيس الفريق العلمي
أ.د. مرزوق بن صنيتان بن تنباك

www.mtenback.com
موقع الدكتور مرزوق بن تنباك

دار رواح للنشر والتوزيع

ⓒ مرزوق بن صنيتان بن تنباك ، ١٤٢١ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

موسوعة القيم ومكارم الأخلاق العربية والإسلامية/مرزوق بن صنيتان بن تنباك ... [أخ]. الرياض.

٥٢ ج؛ ١٧×٢٤ سم

ردمك : ٤-١٨٥-٣٨-٩٩٦٠ (مجموعة)

٠-٢٢٣-٣٨-٩٩٦٠ (ج ٣٨)

١- الأدب العربي – موسوعات أ- ابن تنباك ، مرزوق بن صنيتان (م . مشارك)

ديوي ٨١٠,٣ ٢١/٢٠٧٨

رقم الإيداع : ٢١/٢٠٧٨

ردمك : ٤-١٨٥-٣٨-٩٩٦٠ (مجموعة)

٠-٢٢٣-٣٨-٩٩٦٠ (ج ٣٨)

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
توطئة	٥
العلم لغة	٧
العلم اصطلاحًا	٧
مفهوم العلم عند العرب قبل الإسلام	٨
مكانة العلم في الإسلام	٩
مكانة العلم الاجتماعية	١٦
ترغيب الولاة في العلم	٢٠
ترغيب الخلفاء في العلم	٢٢
ترغيب الولاة في العلم في العصر العباسي	٢٥
ترغيب الحكماء والبلغاء والشعراء في العلم	٢٦
ترغيب الشعراء في العلم	٢٩
ماهية العلوم وأنواعها	٣٣
من فضائل العلم	٤٧
من وسائل اكتساب العلم وحفظه	٥٦
من نوادر المعلمين والمتعلمين	٧٥
الفهارس	٧٩

www.mtenback.com

فإذا رُزِقتَ خليقةً محمودةً فقدِ اصطفاكَ مُقسّمُ الأرزاقِ

فالنّاسُ هذا حظُّه مالٌ وذا علمٌ وذاكَ مكارِمُ الأخلاقِ

حافظ إبراهيم

www.mtenback.com

توطئة:

عني الأسلاف بالعلم، ورغبوا في التعلم، فكان حب العلم معلمًا بارزًا في تاريخ الحضارة العربية والإسلامية، ولقد انطلق العرب المسلمون من جزيرتهم حاملين معهم مشعل الهداية والعلم والحضارة رافعين راياتهم من الصين شرقًا حتى جبال البرنس غربًا.

وإذا كانت الحضارات تقاس أهميتها بمدى ما تتركه من آثار باقية في تاريخ الإنسانية فالحضارة العربية وفق هذا المعيار متأصلة الجذور في مجالات عدة، في: العقيدة، والعلم، والأدب، والفن، والسياسة[1]، وسوى ذلك من آثار ومعالم، شكلت الركائز الرئيسة للعلوم والدراسات والمكتشفات العصرية التي أقامت عليها أوربة اليوم حضارتها الحديثة واعترفت بالدور الحضاري للعرب والمسلمين في بناء نهضتها.

لقد كان العلم وما يزال الوجه الحضاري للأمم على اختلاف أعراقها وانتماءاتها، فهو رأس المال البشري، وأساس التنافس في حياتنا المعاصرة؛ فالكفاءة الاجتماعية والاقتصادية تنهلان من معين واحد، هو معين العلم، وقد أثبتت التجارب التاريخية أن الأمم المتفوقة هي الأمم التي أقبل أبناؤها بشغف على تلقي العلوم، وعكفوا على مدارستها والإفادة منها في واقعهم العملي، وما خبر اليابان وألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية عنا ببعيد؛ فهما المثال الحي، والدليل الساطع على دور العلم ليس في تجاوز الهزيمة النفسية والدمار الشامل فحسب، بل في إعادة كيان الأمة، وإثبات الذات، وتحقيق مراكز الصدارة بين الأمم المتقدمة.

وإذا كان العلم البوابة الواسعة لتحقيق الأمة لذاتها، وتقدمها الحضاري، فمن البدهي أن يكون له شأنه وعمقه البعيد، في التنزيل الحكيم والسنة المطهرة، إلى جانب التراث العربي. وقبل الحديث عن مكانة العلم وأهمية طلبه والاستزادة منه، وأثر ذلك في حياة الفرد والمجتمع، ونهوض الأمم فإن علينا الاطلاع على معنى العلم لغة واصطلاحًا.

---

[1] د. مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا، دار القرآن الكريم، بيروت، (١٩٨٠م) ص٧٢.

www.mtenback.com

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

العلم لغة:

عَلِم يعلَم عِلْمًا: عَرَفه. علم الشيء وبه: شعر به ودرى وعلم الشيء حاصلاً: أيقن به وصدّقه. فهو عالم. وعالمه: باراه وغالبه في العلم وتعالم: أظهر العلم. والعلم: نقيض الجهل، وهو مصدر مرادف للفهم والمعرفة، وهو إدراك الشيء على حقيقته أو اليقين به[٢].

العلم اصطلاحًا:

ويطلق العلم اصطلاحًا: على مجموع مسائل وأصول كلية تجمعها جهة واحدة؛ كعلم الكلام، وعلم النحو، وعلم الأرض، وعلم الكونيات، وعلم الآثار[٣].

كما يطلق العلم على المباحث التى تتناول موضوعًا واحدًا كعلوم العربية، والعلوم الشرعية، والعلوم التجريبية، والعلوم الرياضية، وسواها[٤].

ويوصف الرجل بالعلم لطوّل ملابسته له، حتى يصبح ملكة لديه، وإذا بلغ بالعلم مرتبة عالية نعت بـ علاّم، وعلاّمة؛ أي عالم جدًا، والهاء للمبالغة[٥].

ويرد وصف المعلم على من يتخذ مهنة التعليم، أو من له الحق بممارسة إحدى المهن تخصصًا[٦].

أما المتعلم فيطلق على الذي يتلقى العلم ويتدرج في تحصيله. وقد يطلق التعليم اصطلاحًا: على فرع من فروع التربية[٧].

---

[٢] انظر: ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم: لسان العرب، مكتبة النوري، دمشق، (د.ت)، مادة: علم؛ وأنيس، د. إبراهيم وزملاؤه: المعجم الوسيط دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، (د.ت)، مادة: علم.

[٣] المعجم الوسيط، مادة: علم.

[٤] انظر محمد فريد وجدى: دائرة معارف القرن العشرين، الطبعة السادسة، (١٩٧٣م)، ٦١٤/٦

[٥] لسان العرب، مادة: علم.

[٦] لسان العرب، مادة: علم

[٧] نديم وأسامة مرعشلي: الصحاح في اللغة والعلوم، بيروت، دار الحضارة العربية، (١٩٧٤م) ١٥٢/٢.

www.mtenback.com

مفهوم العلم عند العرب قبل الإسلام:

ورد مفهوم العلم عند عرب الجاهلية بمعنى«المعرفة» والمعرفة وفق مفهومها الذي أشرنا إليه آنفًا يعني: إدراك الجزئيات أو البسيط دون المركب من المعلومات. وبهذا المعنى سجلها الشعر الجاهلي كما وردت عند طرفة بن العبد قائلاً[٨]:

كَرِيْمٌ يُرَوِّي نَفْسَهُ فِي حَيَاتِهِ ... سَتَعْلَمُ إِنْ مُتْنَا غَدًا أَيُّنَا الصَّدِي[٩]

بيد أن مفهوم العلم عند زهير بن أبي سلمى يحمل بعدًا آخر، ينطوي على معنىً روحيٍّ، يفرق فيه بين المعرفة البشرية المقيدة بالماضي والحاضر، والمعرفة الإلهية المطلقة؛ المعرفة الغيبية التي تعرف مكنون الأسرار وما تخفي الصدور، يقول[١٠]:

وَمَا الْحَرْبُ إِلاَّ مَا عَلِمْتُمْ وَذُقْتُمُ ... وَمَا هُوَ عَنْهَا بِالْحَدِيْثِ الْمُرَجَّمِ[١١]

وَأَعْلَمُ مَا فِي الْيَوْمِ وَالأَمْسِ قَبْلَهُ ... وَلَكِنَّنِي عَنْ عِلْمِ مَا فِي غَدٍ عَمِي[١٢]

وَمَهْمَا تَكُنْ عِنْدَ امْرِىءٍ مِنْ خَلِيقَةٍ[١٣] ... وَإِنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تُعْلَمِ

لقد كان لدى العرب قبل الإسلام علم ذاتي فطري، لم يقتصر على الجانب المعرفي الذي شمل بيئتهم، وأحداث حيانهم، بل ارتقى إلى الجانب التأملي الموشح بالإيمان، وإلى وجوب استثمار العلم بالعمل.

---

[٨] ديوان طرفة بن العبد، دار صادر، بيروت، (د.ت) ص٣٣

[٩] الصدى: العطشان؛ يريد أنه يموت ريان، وعاذله يموت عطشان.

[١٠] ديوان زهير بن أبي سلمى، دار صادر، بيروت، (١٩٦٤م) ص٨١،٨٦،٨٨.

[١١] الحديث المرجّم: الذى يحكم فيه بالظنون.

[١٢] عمي: لا استطيع الإحاطة بما يخبئه المستقبل.

[١٣] خليقة: الخُلق والخليقة بمعنى واحد، والجمع: أخلاق وخلائق، والمعنى: أن الأخلاق لا تخفى، والتخلاق لايبقى.

www.mtenback.com

مكانة العلم في الإسلام:

في التنزيل الحكيم:

اقتضت سنة الخالق تبارك وتعالى إرسال الرسل مبشرين ومنذرين حاملين معهم مشعل الهداية، لتعليم الناس سبل حياتهم وصلاحهم في الدنيا والآخرة.

وجاء الإسلام مكرسًا هذه الغاية، فكان غار حراء المدرسة الإلهية الأولى التي نهضت بمهمة هذه الهداية، بكلمة«اقرأ» تلك الكلمة التي نشرت روح العلم والمعرفة، فكانت الينبوع الثّر الذي رفد المشروع الحضاري الإسلامي بكفاءات مؤهلة، جعلتهم سادة الدنيا وعظماءها في فترة طويلة من الزمن الماضي.

وقد عزز هذه المكانة للعلم تعدد الآيات المبينة لفضل العلم، ومكانة العلماء، منها قوله تعالى:﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[١٤]، وقوله سبحانه: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾[١٥] وقوله جلّ وعلا: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[١٦] ففي الآية الأولى رسم الاستفهام الإنكاري البون الشاسع بين العالم والجاهل، وفي الثانية نفت عن غير العالم فقه آيات الله وسننه الكونية، ومقاصده التشريعية، وفي الثالثة وصف للعلماء الذين عرفوا الله ببدائع صنعه، وجلال قدرته، فاستشعروا خشيته، ووقفوا عند حدوده.

هذا فضلاً عن أن القرآن يمثل في جوهره دعوة لإعمال الفكر والعقل، والتدبر في ملكوت الله، ومخلوقات الله التي يمتلئ بها الكون الفسيح. وهذه الدعوة إلى التفكير والتدبر تعدّ منطلقًا إلى الترغيب في العلم والتعلم، تجسيدًا واستجابة لكلمة«اقرأ» التي شحذت زناد الفكر والمعرفة، فكانت مفتاح الفكر الواعي المستنير.

---

[١٤] سورة الزمر: ٩.

[١٥] سورة العنكبوت: ٤٣.

[١٦] سورة فاطر: ٢٨.

www.mtenback.com

ونظرًا لهذه المكانة السامية للعلم لم يحث القرآن الكريم على الاستزادة من شيء كحثه على الاستزادة من طلب العلم، قال تعالى:﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[١٧] واهتمام الإسلام بالعلم لم يقتصر على بيان مكانته، بل جعله جزءًا لا يتجزأ من الدين الإسلامي الذي قوامه العبادة، قال تعالى﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[١٨]، وهي العبادة بمفهومها الخاص والعام. فالخاص يشمل التكاليف الشرعية المخصوصة، والعام كل عمل يعمله الإنسان في عمران الكون وسد حاجته وحاجات مجتمعه. وهذه العبادة بمفهومها الشامل لا تتحقق إلا باكتساب العلوم بشتى أنواعها، سواء كانت دينية أو دنيوية. وتوظيفها لطاعة الله، ومنفعة الإنسان، تبعًا لما رسمته حدود الله ومنهجه.

ومن الجدير بالذكر أن دعوة الإسلام للعلم، والترغيب فيه، لا تنحصر في علوم الدين وحدها دون علوم الدنيا، لأن عمارة الدنيا وبناءها جزء من أوامر الدين، إذ هي دار عبور للآخرة[١٩]. ومما يعزز هذا التواصل الوثيق بين الإنسان والعلم، والدين، أن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان، وحثّه على طلب العلم، وهيأ عنده الاستعداد الكافي للتلقي والتحصيل، وأرشده إلى أدوات ووسائل اكتساب العلم وحفظه ونشره. قال تعالى:﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[٢٠] «ففي هذا النص نلاحظ الدلالة على ثلاثة أمور؛ الأول: الامتنان بما فطر الله الإنسان عليه من قابلية للعلم، وصنعة الكتابة، الثاني:

---

[١٧] سورة طه: ١١٤.

[١٨] سورة الذاريات: ٥٦.

[١٩] علي عبد الحليم محمود: تربية الناشئ المسلم، دار الوفاء، المنصورة، ط٤، (١٩٩٢م) ص٤٢٤.

[٢٠] سورة العلق: ١-٥.

www.mtenback.com

إعلان أن رسالة الإسلام تعتمد في منطلقاتها الأولى على القراءة والكتابة وتحصيل العلم. الثالث: تمجيد العلم، وتمجيد وسائله الكبرى»[٢١].

ويعلل الميداني هذا الارتباط الوثيق بين الإنسان والعلم والدين ببيان أن الإنسان لو لم يكن مهيئًا للعلم، ومعرفة التكاليف الشرعية، وفهم التوجيهات الربانية ما أنزل الله عليه رسالة قوامها العلم، ووسيلتها التعلم، كما منحه القدرة على فهمها، وحسن التعبير عنها، مؤكدًا أصل ذلك العلم وغايته من قوله تعالى:﴿الرَّحْمَنُ. عَلَّمَ الْقُرْآنَ. خَلَقَ الْإِنْسَانَ. عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾[٢٢] كما أشار إلى أن الله سبحانه وجّه الإنسان إلى أداة نشر العلم وحفظه، معظّمًا هذه الأداة وما يدونه الكاتبون من خلالها[٢٣]، لقوله تعالى: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾[٢٤] وعلى هذا فإن غاية الدعوة الإسلامية ترتكز على العلم والتعلم، بما تتحقق به العبودية للخالق، وأمانة الاستخلاف في الأرض، ولهذا كان العلم كثير الورود في القرآن الكريم، فقد ورد لفظ العلم ومشتقاته حوالي ست وخمسين وثمانمئة مرة.

في السنه النبوية:

حفلت السنة النبوية بوفر زاخر من الأقوال والأفعال التى عنيت بالعلم، ورغّبت بالتعلم، كما أشادت بمكانة العلماء. فكانت المؤيد الثاني، على لسان رسول الله، لتحصيل العلم وتفعيله في حياتنا لتنتظم مسيرة الحياة، بمنهج العلم، والمعرفة.

---

[٢١] عبد الرحمن حبنكة الميداني: الأخلاق الإسلامية وأسسها، دار القلم، دمشق، بيروت، (١٩٧٩م)، ج١، ص٣١٩.

[٢٢] سورة الرحمن: ١-٤.

[٢٣] عبد الرحمن الميداني؛ الأخلاق الإسلامية وأسسها، ص٣٢٠.

[٢٤] سورة القلم: ١.

www.mtenback.com

وقد وردت كثير من الأحاديث الشريفة الدالة على هذه الغاية؛ فمن هذه الأحاديث ما جعل طلب العلم فريضةً وواجبًا دينيًا، قال ﷺ:«طلب العلم فريضة على كل مسلم»[٢٥] ومنها ما جسد دور العلم الذى يواكب مهمة الأنبياء والرسل في الهداية، وإصلاح البشرية، لقوله ﷺ: «وإن العلماء هم ورثة الأنبياء، ورّثوا العلم، من أخذه أخذ بحظ وافر»[٢٦] ومنها مارسم خيرية المآل في الدنيا والآخرة، قال عليه الصلاة والسلام: «من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين»[٢٧] ومنها ما حدد مستوى التفاضل بين مكانة العالم والعابد، قال ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم رجلاً»[٢٨] ومن هذه الأحاديث النبوية ما شكل العلم وحدة متناسقة جمعت إلى جانب تحقيق التكافل الاجتماعي بيان مكانة العالم، وفضل طالب العلم، وأهمية مدارسة العلم، والبحث العلمي، سواء عن طريق الرحلة لطلب العلم، أو حلقات البحث، ومحصلة أثر ذلك الديني والاجتماعي، والحضاري؛ قال ﷺ:«ومن سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهّل الله له به طريقًا إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم إلا حفّتهم الملائكة، ونزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وذكرهم الله فيمن عنده، ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه»[٢٩].

---

[٢٥] زكي الدين المنذري: الترغيب والترهيب، تحقيق د.مصطفى عمارة، دار الجيل بيروت، (١٩٨٧م) ج١، ص٩٦.

[٢٦] محمد إسماعيل البخاري: صحيح البخاري، دار الفكر، (١٩٨١م) ج١، ص٢٥.

[٢٧] صحيح البخاري: ٢٥/١

[٢٨] علي محمد الماوردي: أدب الدنيا والدين، تحقيق: مصطفى السقا، الطبعة الثالثة،«دار الكتب العلمية، بيروت، (١٩٥٥م) ص٤١

[٢٩] المنذري: الترغيب والترهيب، ٩٣/١-٩٤

www.mtenback.com

ومن هذه الأحاديث ما جعلت الوشائج قوية بين العلم والتعلم، وبيان فضل من علم وعلّم، قال صلوات الله وسلامه عليه: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا، فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماءً، ولا تنبت كلأً، فذلك مثل من فقه في دين الله، ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به»[٣٠].

ومن هذه الأحاديث ما حذّر من قبض العلم، وفي التحذير من قبض العلم دليل على وجوب طلبه، والحرص عليه، يقول ﷺ «إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبقِ عالمًا اتخذ الناس رؤوسًا جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلّوا وأضلوا»[٣١]. ومنها ما ميز العلم عن سائر الأعمال الدنيوية، إذ لا يفارق صاحبه عند وفاته، بل يبقى أجره ممتداً من الحياة إلى ما بعد الممات، قال عليه الصلاة والسلام:«إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلاّ من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»[٣٢].

ومنها ما جعل العلم يرتقي بصاحبه إلى مرتبة الشفاعة، لقوله ﷺ: «يُبْعثُ العالم والعابد، فيقال للعابد: ادخل الجنة، ويقال للعالم: اثبت حتى تشفع بمن أحسنت أدبهم»[٣٣].

---

[٣٠] البخاري: ١/٢٨

[٣١] البخاري: ١/٣٤

[٣٢] المنذري: الترغيب والترهيب، ١/٩٩

[٣٣] المصدر السابق، ١/١٠٢

www.mtenback.com

ومما ذكرته السنة الشريفة عن الأفعال الدالة على فضل العلم والعلماء ومكانة التعليم، وأنها منزلة رفيعة توازي مهمة النبوة في التوجيه والهداية، ما ورد من أن رسول الله ﷺ، دخل المسجد، فإذا هو بمجلسين: أحدهما يذكرون الله تعالى، والآخر يتفقّهون. فقال رسول الله ﷺ: «كلا المجلسين على خير، وأحدهما أحبّ إليّ من صاحبه؛ أما هؤلاء فيذكرون الله تعالى ويسألونه، فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم، وأما المجلس الآخر فيتعلمون الفقه، ويعلّمون الجاهل، وإنما بعثت معلّمًا»، وجلس إلى أهل الفقه[٣٤].

وقد وردت أحاديث تدعو إلى تقدير العلماء وتوقيرهم، منها قوله ﷺ: «من وقّر عالمًا فقد وقّر ربّه»[٣٥].

وإلى جانب عناية السنة النبوية بالعلم ومكانته عنيت أيضًا ببيان أطره العامة التي يسرت حفظه ونشره، وذلك بالدعوة إلى القراءة والكتابة لكونهما مفتاح المعرفة والعلوم، وقد ألحنا إلى أن القراءة أخذت قيمتها المرتبطة بفضل العلم مجسدة بأولى آيات التنزيل الحكيم «اقرأ» صارت الكتابة الصنو الآخر للمعرفة حفظًا ونشرًا. وقد ورد في الحديث بيانًا لذلك: «قيدوا العلم بالكتاب»[٣٦].

ومن ناحية أخرى جعل النبي الكريم الكتابة نظير الحرية؛ حيث جعل فداء الأسير في غزوة بدر الذي لا يجد مالاً لفداء نفسه أن يعلّم أولاد الأنصار الكتابة[٣٧].

ومن توجيهاته عليه السلام لحفظ العلم: «الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها قيدها»[٣٨].

---

[٣٤] الماوردي: أدب الدنيا والدين، ص٤٤.

[٣٥] الماوردي: أدب الدنيا والدين، ص٧٥.

[٣٦] الماوردي: أدب الدنيا والدين، ص٦٦.

[٣٧] ابن كثير: البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، ط٢، (١٩٩٠م)، ٣٢٨/٣

[٣٨] الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، دار الآثار، بيروت، (د.ت) ص٢١.

www.mtenback.com

كما حث رجلاً من الصحابة على الكتابة لصون علمه من الضياع، وذلك عندما قال له: «إني لأسمع الحديث ولا أحفظه، فقال: استعن بيمينك»[٣٩].

وعلى العموم فإن ما ذكرناه عن مكانة العلم في السيرة النبوية هو جزء يسير مما حفلت به عن بيان مكانة العلم، وبعد أثره في حياة الأمة، مما يجعلنا حريصين على النهل منه ما استطعنا.

عند الصحابة والتابعين:

احتذى السلف الصالح من الصحابه والتابعين هدي رسول الله في حبهم للعلم وتقديرهم له وتفعيله في حياتهم، فعن أبي هريرة رضي الله عنه: «أنه مّر بسوق المدينة، فوقف عليها، فقال: ياأهل السوق، ما أعجزكم! قالوا: وما ذاك يا أبا هريرة؟ قال: ذاك ميراث رسول الله ﷺ يقسم وأنتم ها هنا ألا تذهبون فتأخذون نصيبكم منه، قالوا: وأين هو؟ قال: في المسجد. فخرجوا سراعًا، ووقف أبو هريرة لهم حتى رجعوا فقال لهم: مالكم؟ فقالوا: يا أبا هريرة قد أتينا المسجد فدخلنا فيه، فلم نر فيه شيئًا يقسم، فقال لهم أبو هريرة: وما رأيتم في المسجد أحدًا؟ قالوا: بلى رأينا قومًا يصلون، وقومًا يقرؤون القرآن، وقومًا يتذاكرون الحلال والحرام، فقال لهم أبو هريرة: ويحكم فذاك ميراث محمد ﷺ»[٤٠]. فهذا النص يبين مدى اهتمام السلف الصالح بالعلم وربطهم للعلم بالإيمان وتمثلهم له في حياتهم نبراسًا وموجهًا.

ومن صور الاهتمام بالعلم وتفعيله في حياة الصحابة الكرام، أنهم كانوا يستشعرون هول المحاسبة والمساءلة عن ذلك، قال أبو الدرداء: «أخوف ما أخاف إذا وقفت بين يدي الله، أن يقول: قد علمت فماذا عملت؟!»[٤١].

---

[٣٩] الزمخشري: ربيع الأبرار، تحقيق: د.سليم النعيمي، وزارة الأوقاف، العراق، (١٩٨٠) ٢٣٦/٣.

[٤٠] المنذري: الترغيب والترهيب، ج١، ص١٠٢-١٠٣.

[٤١] الماوردي: أدب الدنيا والدين، ص٨٥.

www.mtenback.com

ومن الآثار الواردة في تقدير العلم وأهله، وأنه مدعاة لإلغاء الفوارق الاجتماعية، والارتقاء بأهله إلى المكانة السامية في المجتمع، ما روي أنه: «دخل أبو العالية على ابن عباس، فأقعده معه على السرير، وأقعد رجالاً من قريش دونه، فرأى سوء نظرهم إليه فقال: ما لكم تنظرون إليّ نظر الشحيح إلى الغريم المفلس؟! هكذا الأدب يشرّف الصغير على الكبير، ويرفع المملوك على الولي، ويقعد العبيد على الأسّرة»[٤٢].

ومن صور تبجيل العلماء وتعظيمهم ما رواه الشعبي قائلاً: «ركب زيد بن ثابت فأخذ عبد الله بن عباس بركابه، فقال: لا تفعل يا ابن عم رسول الله ﷺ، فقال: هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا»[٤٣].

مكانة العلم الاجتماعية:

أفضت مكانة العلم في القرآن الكريم، والسنةالنبوية إلى حدوث وعي جمعي، ونشاط فكري بأهمية العلم ودوره في ازدهار المجتمع ورقيه، حتى ترسخت هذه المكانة، وأصبح العلم مطلبًا ساميًا يسعى إليه الخاصة والعامة.

وقد زخرت كتب التراث الأدبية والتاريخية بصور من هذا الاهتمام، تراءت عند الخلفاء، والولاة، والفلاسفة، والبلغاء، والشعراء، وسواهم.

عني الخلفاء بالعلم، ووصّوا أبناءهم بملازمة أهله ليكونوا مؤهلين لسيادة الأمم، وتأسيس حضارة رائدة زاهرة، مع بيان أن من أسس تكوين الحضارة أن يكون هناك رواد تناط بهم مسؤولية إرساء قواعد البناء الإنساني، والازدهار الحضاري.

ومن هذه الوصايا التي أسهمت بهذا التكوين وصايا الخلفاء والولاة لأبنائهم بالعلم، مع متابعة مراحل العملية التعليمية مع مؤدبي أبنائهم.

---

[٤٢] الزمخشري: ربيع الأبرار، ٣/٢٥٤.

[٤٣] ابن عبد ربه: العقد الفريد، تحقيق: أحمد أمين وآخرين، دار الكتاب العربي، بيروت، (١٩٨٣م) ج٢، ص٢٢٤

www.mtenback.com

فقد عني الخلفاء بتربية أبنائهم، وكان من مظاهر هذا الاهتمام اختيار المؤدبين الأكفاء لتعليمهم وتأديبهم، إلى جانب غرس مكانة العلم في نفوسهم، ودوره في بناء الشخصية القيادية.

ومن هؤلاء الخلفاء عبد الملك بن مروان موصيًا أبناءه قائلاً لهم: «تعلموا العلم، فإن كنتم سادة فقتم، وإن كنتم وسطًا سدتم، وإن كنتم سوقة عشتم»[٤٤]. فبهذه الكلمات العميقة الموجزة بيّن عبد الملك بن مروان أهمية العلم لكل الفئات الاجتماعية على تعددها وتباينها، موضحًا المستوى اللائق، الذي يضفيه على كل منها.

وفي وصية أخرى ينحو عبد الملك منحى التخصص في تحديد العلوم الأولية التي ينبغي على الناشئ تلقيها في هذه المرحلة الغضة المتميزة بفصاحة اللسان، وتقويمه من اللحن والعجمة، لا سيما بعد أن أخذت السلائق تضعف بعد امتزاج العرب بأبناء الأمم المفتوحة زواجًا، وولاءً، وتعايشًا. وهذا ما جعل عبد الملك يحث مؤدب ولده على تعليمه القرآن والنحو، قائلاً له: «علّم ولدي فإني معطيك، فقال له: «وكيف يا أمير المؤمنين؟ وأن رسول الله ﷺ قال: من أخذ على تعليم القرآن قوسًا قلّده الله قوسًا من نار يوم القيامة! فقال عبد الملك: إنني لست معطيك على القرآن، ولكن أعطيك على النحو»[٤٥].

وقد أدى هذا الاهتمام من الخليفة الأموي بفصاحة أبنائه، وسلامة لغتهم، إلى إرسالهم إلى البادية، لينهلوا اللغة من معينها الصافي، حتى تصبح ملكة وسليقة لديهم، فيتهيئوا بمكانة كريمة بين الناس وأثر فاعل في الأمة. ومن هنا كان أسفه بالغًا للحن ابنه الوليد، إذ قال:«أضرّ بالوليد حبنا له، فلم نوجهه إلى البادية»[٤٦].

---

[٤٤] الماوردي: أدب الدنيا والدين، ص٤١

[٤٥] عبد القادر زيدان، تهذيب تاريخ ابن عساكر،«دار المسيرة، بيروت، (د.ت) ٣/٣٠.

[٤٦] الجاحظ: البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٥، (١٩٨٥م)، ج٢، ص٢٠٥

www.mtenback.com

وفى وصية أخرى يوجه عبد الملك مؤدب أولاده لأن يختار لهم من رواية الشعر ما يدعو إلى الفضيلة ومكارم الأخلاق، قائلاً: «إذا روّيتهم شعراً فلا تروّهم إلاّ مثل قول العجير السلولي»[٤٧]:

وَتَظْعَنُ جَارَتِي مِنْ جَنْبِ بَيْتِي ... وَلَم تُسْتَرْ بِسِتْرٍ مِنْ جِدَارِي

وَتَأْمَنُ أَنْ أُطَالِعَ حِيْنَ آتِي ... عَلَيْهَا وَهْيَ وَاضِعَةُ الْخِمَارِ

كَذَلِكَ هَدْيُ آبَائِي قَدِيْمًا ... تَوَارَثَهُ النِّجَارُ[٤٨] عَنِ النِّجَارِ

وهذه الوصية إلى جانب تأكيدها على ملامح الشخصية العربية في تمثيلها للقيم الخلقية تهدف من ناحية أخرى إلى رعاية الحس الأدبي للناشئ وتنمية ملكة التذوق والنقد لديه؛ بتعريفه بالأدب الرفيع الذي يُنتقى ويُروى ويحفظ ليصير مع الأيام إلى توجهات فكرية، تشكل الشخصية القيادية لمن سيقع عليهم عبء الحكم ويكون بيدهم زمام الأمور.

ونتابع ظاهرة الاهتمام بالعلم لدى الخلفاء الأمويين، ونجدها لدى الخليفة عمر ابن عبد العزيز تجسد رؤية متطورة تتمثل بتحديد نوعية العلوم التى يتلقاها الأبناء وما يرافقها من معايير تربوية تعد جزءاً لا يتجزأ من العملية التعليمية. يقول موصياً مؤدب ولده في رسالة يوجهها إليه[٤٩]: «أما بعد، فإني اخترتك على علم مني بك لتأديب ولدي، فحدّثهم بالجفاء فهو أمعن لإقدامهم، وترك الصحبة فإن عادتها تكسب الغفلة، وقلة الضحك فإن كثرته تميت القلب، وبغض الملاهي التي بدؤها من الشيطان، وليفتتح

---

[٤٧] أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، طبعة دار الكتب المصرية، ط٣ (١٩٦٣م)، ١٣/٧٥.

[٤٨] النّجار: الحسب والأصل.

[٤٩] ابن الجوزي: سيرة عمر بن عبد العزيز، صححه: محب الدين الخطيب، مطبعة المؤيد، مصر، (١٣١٣هـ)، ص٢٥٧.

www.mtenback.com

كل غلام منهم بجزء من القرآن يتثبّت في قراءته، فإذا فرغ تناول قوسه ونبله فرمى سبعة أرشاق[٥٠]، ثم انصرف إلى القائلة[٥١]...».

وهذه الوصية إلى جانب تسليطها الضوء على الوجه الآخر للخليفة عمر بن عبد العزيز، الخبير التربوي، والمربي الناجح، تكشف من ناحية أخرى سبقه لزمانه في فهمه لأسس الصحة النفسية وأثرها في تكوين الشخصية السوية، فهو قد عني بالتربية الروحية، والقيم الخلقية والمعايير التعليمية جنبًا إلى جنب مع التربية الجسمانية بحيث تتدافع هذه القوى في الشخصية فترقى بها إلى مصاف الكمال الإنساني.

وتطّرد ظاهرة الاهتمام بالعلم والترغيب فيه لدى الخلفاء، فنجدها لدى الخليفة هشام بن عبد الملك تنحو نحو التخصص العلمي المعلّل، حيث يقول لأبنائه: «تعلموا القرآن والنحو، فإن القرآن بلا نحو كالجسد بلا رأس»[٥٢]

ويلفت الانتباه في هذه الوصية تحديده لعلمين هامين من علوم العصر، النقلية والعقلية: القرآن والنحو، ويبين الوشائج القوية بين العلمين، وأثرهما في بناء شخصية الأبناء دينيًا ولغويًا وفكريًا، فهو ابتداءً اختار من العلوم النقلية: القرآن الكريم؛ الذي يدعو في الكثير من آياته إلى شحذ الذهن، وإعمال الفكر، والتدبر في ملكوت السموات والأرض، كما أنه الكلام الإلهي الذى لا يبارى أسلوبه في فصاحة الألفاظ، وبلاغة العبارات، إلى جانب أنه العامل الرئيس لتقويم الألسنة وسلامتها من اللحن.

أما علم النحو فهو مع كونه أساس العلوم اللغوية يُعَد من العلوم العقلية التي تقوم على الرياضة الذهنية، والقياس المنطقي، والمحاكمة العقلية. وهو إلى جانب ذلك له دوره الحيوي في فهم معاني القرآن، وفقه أحكامه،إذ لا تستقيم قراءة القرآن دون

---

[٥٠] الرشق: الضرب من الرمي، وهو أن يرمي الرامي بالسهام كلها، ويجمع على أرشاق.

[٥١] القائلة: الظهيرة، وقد تكون بمعنى القيلولة، وهى نومة نصف النهار، أو الاستراحة دون نوم.

[٥٢] الزمخشري: ربيع الأبرار، ج٣، ص٢٦٦.

www.mtenback.com

ضبط حروفه، وإعراب آياته، فضلاً عن أن العلوم الأخرى لا غنى لها عن سلامة الضبط النحوي. ومن هنا كان حرص الخليفة هشام بالغًا على أن يتلقى أبناؤه ذروة سنام العلوم، للوشائج القوية التى تربط بينها، ودورها الوظيفي في تكوين الشخصية.

ترغيب الولاة في العلم:

ويطالعنا من هذا النوع وصية عتبة بن أبي سفيان والي مصر في عهد معاوية قائلاً لمؤدب ولده: «ليكن أول ما تبدأ به من إصلاحك بنيَّ إصلاحك نفسك، فإن أعينهم معقودة بعينك، فالحسن عندهم ما استحسنت، والقبيح عندهم ما استقبحت. علّمهم كتاب الله، ولا تكرههم عليه فيملوه، ولا تتركهم منه فيهجروه.ثم روِّهم من الشعر أعفّه، ومن الحديث أشرفه، ولا تخرجهم من علم إلى غيره حتى يحكموه، فإن ازدحام الكلام في السمع مضلّة للفهم. علمِّهم سير الحكماء، وأخلاق الأدباء، وجنّبهم محادثة النساء. وتهددهم بي، وأدبهم دوني، وكن لهم كالطبيب الذى لا يعجّل بالدواء حتى يعرف الداء. ولا تتكل على عذر مني، فإني اتكلت على كفايتك. وزد في تأديبهم أزدك في بري إن شاء الله»[٥٣].

ففي هذه الوصية تنبيه إلى شِقّي العملية التعليمية: التربوي والمنهجي، فهي ملتقى لآراء تربوية سليمة تعنى ببناء الشخصية المتوازنة من الناحية الخلقية، والنفسية، والتعليمية؛ فعلى صعيد بناء الشخصية خلقيًا يؤكد الأب على أهمية القدوة الصالحة في هذه المرحلة العمرية الغضة؛ إذ إنها ستتحول مع الأيام إلى مخزون فكري وجداني لا يلبث أن تبين آثاره وتثمر غراسه في أقوال الناشئ وأفعاله التي تعكس تربيته وميوله، وتسهم بتحقيق الحصانة الخلقية والرصيد الفكري الذي ي طرد بعد ذلك بمرور الأيام، بعد أن أُحْسِن التعليم والتوجيه.

---

[٥٣] البيان والتبيين، ٢/٧٣.

www.mtenback.com

ومن الناحية التربوية يدرك الموصي بعطف الأب، وخبرة المربي تباين الملكات الفردية واتجاهاتها، وضرورة استغلالها في إنجاح العملية التعليمية وفق هذه القدرات، مراعيًا ما تنجذب إليه النفوس الغضة وما تجانبه مع مراعاة تبسيط العلم، وتحبيبه للناشئ، وعدم القسر عليه، أو إهماله. وهذا المنهج يفيد منه الأب نفسيًا قبل بداية العملية التعليمية، بمعنى أن يراعي المؤدب التدرج في طرح المادة العلمية وفق الاستعداد الذهني والنفسي حتى لا يؤدي حشو الذهن بالمعلومات إلى إرهاق العقل، وتشتيت المعلومات.

ثم يحدد المواد العلمية التى تضع المهاد الرئيس، والأرضية الصلبة للعلوم الأساسية لتكوين الناشئ، ويأتي في صدارتها: تعلم القرآن الكريم، والحديث الشريف، ورواية الشعر المهذب الرقيق، إلى جانب الاطلاع على مآثر الحكماء، وشمائل الأدباء، فكل هذه تخاطب وجدانه، وتحاكي عقله، ومن ثم تترك بصماتها في تكوين الشخصية الواعية المتوازنة.

ومصعب بن الزبير الذي استعمله أخوه واليًا على المدينة والبصرة[٥٤] يدرك قيمة العلم، ويحث ابنه على تحصيله منوهًا عن مكانته، فيقول له: «تعلّم العلم، فإن يكن لك مال كان لك جمالاً، وإن لم يكن لك مال كان لك مالاً»[٥٥] فيوضح لولده مكانة العلم في سلم متطلبات الحياة البشرية، إذ العلم ثروة تغني صاحبها عما سواها من الثروات؛ فالعلم قد يجني المال، والمال لا يثمر العلم، كما أنه إذا اقترن العلم بالمال لم يتساويا في الفضل، إذ تبقى للعلم مزية الرقي الفكري والسمو الروحي، اللّذين يضفيان على صاحبهما بهاءً وجلالاً وفخاراً.

ومع احتفاء الطبقة الحاكمة بالعلم والترغيب فيه، تطالعنا بعض الوصايا التي تلامس الحياة الجديدة للمجتمع العربي، وتواكب متطلباته، لا سيما بعد أن اتسعت

---

[٥٤] ابن الأثير: الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، (١٩٦٥م)، ٤/٢٠٦

[٥٥] الماوردي: أدب الدنيا والدين، ص /٤١

www.mtenback.com

الفتوحات، وتعددت وسائل المواصلات، فلم يعد العربي منعزلاً في صحرائه، بل أخذ يجوب البلاد المفتوحة ذات التضاريس المختلفة، ومن ثم أصبح بحاجة إلى تعلم علوم جديدة تفي بمقتضيات الحياة المعاصرة، التي منها تعلم السباحة، والتمرس بفنونها، ومن هنا تصبح مطلبًا حيويًا يحرص الآباء على تعليمها للأبناء. ومن هنا فيوصي الحجاج - والي العراق - مؤدب ولده قائلاً له: «علّم ولدي السباحة قبل الكتابة، فإنهم يصيبون من يكتب عنهم، ولا يصيبون من يسبح عنهم»[٥٦] ووصية الحجاج تهدف لأن يتمرس الأبناء بتعلم مواجهة معضلات الحياة والنجاة منها بقدراتهم الذاتية. وهذا الاهتمام من الحجاج بتعليم السباحة لا يعني إغفاله شأن الكتابة، أو التقليل من شأنها، وهو أحد بلغاء العصر، إنما هدف إلى تسليط الضوء على بعض العلوم الحيوية التي اقتضتها حركة الحياة المعاصرة.

ترغيب الخلفاء في العلم:

كنا قد ألمحنا إلى أن وصايا العلم في العصر الأموي شكلت نشاطًا فكريًا وملمحًا حضاريًا في بنية المجتمع العربي، وقد واكب الخلفاء العباسيون هذه المسيرة العلمية الحضارية التي حققت مزيدًا من الازدهار في سائر العلوم والفنون والمعارف الإنسانية تدوينًا، وتأليفًا، وترجمةً، وإبداعًا.

وقد اتضح هذا الثراء الفكري الحضاري بمظاهر حبّ الخلفاء أنفسهم للعلم، وتقديرهم للعلماء، وبذل العطايا الجزيلة لهم، إلى جانب عنايتهم بتعليم أبنائهم، واختيار المؤدبين الأكفاء لتعليمهم وتأديبهم، حتى أصبحت مكانة المؤدب تفوق مكانة المعلم. قال عبد الملك بن صالح لمؤدب ولده:«إني جعلتك مؤدبًا بعد أن كنت معلمًا...»[٥٧]، وكان من طليعة الخلفاء العباسيين الذين اهتموا بتأديب أبنائهم

---

[٥٦] الجاحظ، البيان والتبيين، ١٧٩/٢

[٥٧] ابن قتيبة عيون الأخبار، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، مصر، (١٩٨٢م) ٢١/١.

www.mtenback.com

وترغيبهم بالعلم الخليفة هارون الرشيد، يقول في وصيّة يوجهها لمؤدب ولده قائلاً: «يا أحمر، إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه، وثمرة قلبه، فصيّر يدك عليه مبسوطة، وطاعتك عليه واجبة، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين. أقرئه القرآن، وعرّفه الآثار، وروّه الأشعار، وعلمه السنن، وبصره مواقع الكلام وبدئه، وامنعه الضحك إلا في أوقاته. وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا عليه، وارفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه. ولا تمرّن بك ساعة إلا وأنت مغتنم فيها فائدة تفيده إياها من غير أن تخزق به فتميت ذهنه، ولا تمعن في مُسامحته فسيتحلي الفراغ ويألفه. وقوّمه ما استطعت بالقرب والملاينة، فإن أباهما فعليك بالشدّة والغلظة»[٥٨].

إنّ السياسة التعليمية هم كبير عند كل الناس وفي كل الأزمان، والمنهج الذي يربى عليه النشء منهج يحتاج إلى وضع الأولويات وما يصلح للنشء ويصلحهم لأمور الحياة وما يتوخاه المربون من نتائجه بعد أن يجتهدوا في شرح وظيفة المربي وما يقوم به من أعمال جليلة وهي كذلك مهمة كل أب وأم مهما كان مركزه في المجتمع: الخليفة والملك والسلطان والصغير والكبير كل يجب أن يهتم بأولاده وتربيتهم ولا يخفى أمر التعاون وأهميته بين كل المعنيين بالتربية السليمة ومما تقدم يتضح أهمية التعاون في التربية لكي تثمر النتائج الطيبة، فلا يكتفي الآباء بآراء المعلمين واجتهاداتهم ولا يطلق الأب للمؤدب أو المعلم في عصرنا الحاضر الحبل على الغارب في تعليم أبنائه، على الرغم من كفاءته وأمانته، بل يشاركه في رسم المنهج الملائم لتكوين البنوّة فكريًا، ونفسيًا، وعلميًا، ذلك المنهج الذى يرتكز على دعائم ثلاث: التربية الإسلامية، والقيم العربية، والصحة النفسية؛ فالتربية الإسلامية تمثلت في تعلم القرآن الكريم والسنة النبوية. والقيم العربية تجسدت في الاطلاع على: أيام العرب وأخبارها وأنسابها،

---

[٥٨] المسعودي: مروج الذهب، تحقيق:د. مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، (١٩٨٦م) ٤٣٠/٣.

www.mtenback.com

ورواية أشعارها والتعرف على مكارم أخلاقها، والتدرب على فصاحة ألفاظها، وبلاغة تعبيرها. وتجلت الصحه النفسية في انضباط الشخصية وجدّيتها، مع العناية باستثمار الوقت، والانصراف عن اللهو والهزل إلاّ في أوقات يتطلبها الترويح عن النفس. إلى جانب التمرس بمعرفة أقدار الناس ومكانتهم، وإنزالهم منازلهم مع تكريم القواد وإجلالهم. وفضلاً عن ذلك فالرشيد وهو يخطط للعملية التعليمية: بشقيها: التربوي والمنهجي، لا يغفل أثر الشعور النفسي للمتلقي في إنجاحها، وذلك بتهيئة المناخ المناسب للتلقي العلمي الذي لا يتم بالقسر والإكراه، بل بالموازنة بين اللين والشدة، مع الإغضاء عن التقصير، الذي ينبغي ألاّ يصبح عادة قد يستغلها الفتى بالعبث والإهمال فتكون - حينئذ - الشدة والغلظة هما العلاج الحاسم للتقويم والإصلاح.

وهذه الوصية تسجل في وقت مضى كثيراً من القيم التربوية المرجوة في عصرنا، وهي بذلك ترقى إلى مستوى التأصيل لسمات من المنهج التربوي الحديث، حيث جمعت هذه الوصية - على إيجازها - النظرات التربوية الحديثة للشخصية المتكاملة المتوازنة، كما اصطلح عليها علماء التربية المحدثون[٥٩]، كما تبرز دور التراث الأدبي في رفد الحياة المعاصرة بمعطيات تربوية خصبة تلائم مختلف الأزمان والبيئات، وأن الخلفاء كانوا خبراء تربية إلى جانب كونهم قادة الأمة.

ونقف مع الخليفة المأمون الذي عني بالعلم ورغّب فيه، حتى قامت دولة الحكمة في أيامه[٦٠]. ومن مظاهر عنايته بالعلم والترغيب فيه تلك الوصية التي وجهها إلى أولاده بعد أن سمع لحنًا من بعضهم، فقال لهم: «ما على أحدكم أن يتعلم العربية يصلح بها لسانه، ويفوق أقرانه، ويقيم أوده، ويزين مشهده، ويقلل حجج خصمه بمسكتات حكمه. أيود أحدكم أن يكون كعبده أو أمته؟»[٦١].

---

[٥٩] انظر: إبراهيم عصمت مطاوع: أصول التربية، دار المعارف، ط٢، (١٩٨٠م) ص٦٥.

[٦٠] خير الدين الزركلي: الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط٧، (١٩٨٦م)

[٦١] الوطواط: غرر الخصائص الواضحة، دار صعب، بيروت، (د.ت) ص١٧٢.

www.mtenback.com

يعنى الخليفة المأمون بإقامة اللسان العربي، ونقائه من اللحن والعجمة، لاسيما بعد شيوعهما على ألسنة العرب أنفسهم بسبب الاختلاط بالأعاجم ومن هنا أدرك الخليفة المثقف ما تتطلبه حركة الحياة من مهام في مقدمتها الاضطلاع بعلوم اللغة، فهي المصدر الأول للانتماء، والركيزة الرئيسة للعلوم عامة، فصلاح اللغة صلاح لكل علم يصدر عن الإنسان رواية أو تدوينًا. وإذا كان اللحن هجنة على لسان العامة فهو أشد هُجنة على لسان الخاصة، لا سيما من تؤول إليهم مقاليد الخلافة، وخطابة المحافل. ومن هنا حرص المأمون على سلامة اللغة العربية مبينًا أنها مظهر حضاري متميز يفصح عن أصحابه على مستوى الفرد والجماعة، فمن استقامت لغته ساد أقرانه، واستقامت حياته، وزيّن مجلسه، وأفحم خصمه ببراعة منطقه، وإن سلامة اللغة ترتقي بصاحبها عن الدرجة الدونية من فئات المجتمع الذين لا يقيمون نحوًا، ولا يسلمون من العجمة، بسبب قلة ثقافتهم وعلمهم. ومن هنا فحري بالكرام أن يقيموا لسانهم العربي المبين، شاهدًا على فصاحة لغتهم، وروعة بيانهم وعراقة أصلهم.

ترغيب الولاة في العلم:

اهتم رجال الدولة بالعلم منتهجين سنة الخلفاء ولا سيما من كان منهم من ذوي العلم والثقافات المتعددة، فأدركوا أثر المعرفة في بناء الفكر، وتغذية الوجدان. ومن ثّم وجهوا أبناءهم لعقد صداقة متينة مع العلوم، وأبرزها: الآداب، يقول يحيى البرمكي[٦٢] لابنه: «انتق من كل علم طرفًا، فمن جهل شيئًا عاداه، وأكره أن تكون عدوًا لشيءٍ من الآداب»[٦٣].

---

[٦٢] هو: يحيى بن خالد البرمكي، تولى الوزارة لأبي العباس السفاح، وكان يتصف بالخلال الكريمة، ضم إليه المهدي الرشيد وجعله في حجره، فلما استخلف هارون الرشيد عرف حقه، فكان يناديه يا أبت...، ابن خلكان، وفيات الأعيان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت،د.ت، ٦/٢١٩-٢٢١.

[٦٣] الراغب الأصفهاني: محاضرات الأدباء، ص٢٢.

www.mtenback.com

لقد أشار يحيى البرمكي إلى دور الأدب في حياة رجال العصر، فهو إلى جانب قيمته التربوية يشكل في مفهوم ذلك العصر حصيلة علوم عدة، تعّد ركيزة العلوم الإنسانية[٦٤].

وفي وصية أخرى ليحيى البرمكي تبين رؤية أخرى متطورة وهي تتناول عملية التلقي للعلم وقراءة العلوم، بحيث تخضع القراءة لعملية نقدية تميز بين الغث والسمين، يقول: «اكتبوا أحسن ما تسمعون، واحفظوا أحسن ما تكتبون، وتحدثوا بأحسن ما تحفظون»[٦٥].

فكأنه يوصي أبناءه بأن تتحول عملية التلقي إلى عملية منطقية تترتب فيها النتائج على المقدمات، بحيث تمر بمراحل عدة: إعمال الفكر، ثم الموازنة، فالتقويم، فالاختيار، ومن ثم يخضع هذا الاختيار إلى تصنيف خاص: الكتابة لأحسن ما يسمع، الحفظ لأفضل ما يكتب، التحدث بأجود ما يحفظ.

وهذا التصنيف الأخير له مغزاه الهام، إذ إن الحديث مع طبقات الناس ينبغي أن يخضع لمعايير دقيقة، لأنه يخرج عن دائرة الذات إلى دائرة الجماعة، وأوقات الجماعة متفاوتة، وأذواقهم متباينة، فلا يستثير اهتمامهم ويجذب مشاعرهم إلا ما كان من روائع الأقوال، وفضلاً عن ذلك فإن هذه العملية التقويمية لها مؤداها العلمي والتربوي في الارتقاء بالذوق الأدبي، وتنمية ملكة النقد الذاتي مما يعد مرحلة متطورة من النشاط الفكري.

ترغيب الحكماء والبلغاء والشعراء في العلم:

كان للحكماء والبلغاء والشعراء دورهم الحيوي، ورؤيتهم المميزة بطرح مفهوم العلم، وبيان أهميته، والترغيب فيه، ومن ثم تعددت الرؤى بتعدد خلفيات هذه

---

[٦٤] انظر في مفهوم الأدب في ذلك العصر، مقدمة ابن خلدون، دار إحياء التراث العربي، (د.ت)، ص٥٥٣.

[٦٥] العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، المكتب التجاري، بيروت، (د.ت)، ٣٢٧/١.

www.mtenback.com

النخبة: الثقافية، والبيئية والفكرية. كان للمربين اطلاعهم الواسع على خبرات الأمم الأخرى، وثقافاتهم، فأفادوا من آدابهم ونقلوا ما زاد في حكمتهم، ومن ذلك ما نقل في قول لبزرجمهر حكيم الفرس حيث سئل: «العلم أفضل أم المال؟ قال: بل العلم ! قيل: فما بالنا نرى العلماء على أبواب الأغنياء، ولا نرى الأغنياء على أبواب العلماء؟ فقال: ذلك لمعرفة العلماء بمنفعة المال، وجهل الأغنياء بفضل العلم»[٦٦].

هذه الإجابة تبرز قيمة العلم التي تضفي بعدًا فكريًا بمتطلبات حركة الحياة.

وتطالعنا رؤية أخرى لمكانة العلم من حكيم آخر موصيًا ولده: «يا بني عزّ المال للذهاب والزوال، وعز السلطان يومان، يوم لك، ويوم عليك، وعز الحسب للخمول والدثور، وأما عز الأدب فعز راسب رابط، لا يزول بزوال المال، ولا يتحول بتحول السلطان، ولا ينقص عن طول الزمان. يابني عظّمت الملوك أباك وهو أحد رعيتها، وعبدت الرعية ملوكها، فشتان بين عابد ومعبود..»[٦٧].

لقد فاز العلم بالقوس المعلّى بين النظائر الأخرى التي لها مكانتها الاعتبارية في المجتمع: «المال، السلطان، الحسب» فمكانة العلم تتنامى مع الأيام، ولا تتبدل بتبدل الزمان والمكان.

وقد رغب أصحاب الفكر والكلام بالعلم، وهم أهله الذين أعلوا من شأن العقل، إذ فسروا المعرفة تفسيرًا عقليًا، ومن هؤلاء الحكماء الذين عنوا بالعلم لا سيما الأدب: أرسطاطاليس قائلاً: «من ترك الأدب عقم عقله»[٦٨]. وهو قول يعلي من قيمة الأدب الذى يؤدي تركه إلى خمول العقل، وهذا حق، فالأدب يغذي الوجدان، ويمتع العقل، وإذا كان ذلك كذلك أدى ترك الأدب إلى عقم العقل وجفافه.

---

[٦٦] الماوردي: أدب الدنيا والدين، ص/٤٢

[٦٧] الزمخشري: ربيع الأبرار، ٣/٢٥٥

[٦٨] الزمخشري: ربيع الأبرار، ٣/٢٦٢

www.mtenback.com

ويعزز هذه المكانة للعلم والأدب الفيلسوف سقراط، عندما سُئل: «ما الفرق بين من له أدب، ومن لا أدب له؟ قال: كالفرق بين الحيوان الناطق، والحيوان الذى ليس بناطق»[٦٩].

أفضت هذه الموازنة بين المتعلم المتأدب وسواه إلى بيان وجه الاختلاف بين الكائن الحي الذي أكرمه الله بالفهم والعقل، وبين الحيوان الأعجم الأبكم الذي لا يعقل! وهذا البون الشاسع بينهما يعود في نظر الحكيم إلى كون الأدب يمنح الإنسان إنسانيته، بما يحفل به من قيم ومثل عليا، أو بما يمنحه من مكارم الأخلاق التي ترقى بالمشاعر، وتسمو بالفكر، وتدعو لبناء مجتمع أفضل.

وللبلغاء رؤيتهم المميزة في فضل العلم والترغيب فيه، من ذلك قول أحدهم:«تعلم العلم فإنه يقوّمك ويسدّدك صغيرًا، ويقدّمك ويسوّدك كبيرًا، ويصلح زيفك وفاسدك، ويرغم عدوك وحاسدك ويقوّم عوجك وميلك، ويصلح همتك وأملك»[٧٠].

وقد تتعدد مزايا العلم الذى يكسو صاحبه حلة من الفضائل ومكارم الأخلاق، بما يحقق بناء الشخصية الإنسانية، ويؤهلها لخوض غمار الحياة بثقة ونجاح، بحيث لا تتوفر هذه المؤهلات مجتمعة إلا بالعلم.

ومن البلغاء الذين اهتموا بالمعارف ولاسيما علم الأدب؛ عبد الله بن المقفع موصيًا ولده باكتسابه: «أي بني، إذا أوجبت على نفسك في صغر السن وعنفوان الصبا، كسب الأدب، وقمت بتعلمها فإنك عندما تكبر تصل إلى نتيجتها المحبوبة، وثمرتها المطلوبة، وتنتفع بها. وكل من تأخذ بأذياله فكرة اكتساب الآداب فلا بد من أن يبذل العناية في طلبها، ويحتمل العناء.«ومن يطلب الحسناء لم يغلها المهر...»

---

[٦٩] الزمخشري: ربيع الأبرار، ٢٤٩/٣

[٧٠] الحصري: زهر الآداب، تحقيق: زكي مبارك، الطبعة الرابعة، بيروت، (د.ت)، ص٤٢٩.

www.mtenback.com

فاغتنم الأدب، واعتبر الحرص على اكتسابه حظًا وافرًا، ونصيبًا كاملاً من سعادة البخت، ومساعدة الأيام»[٧١].

يرى ابن المقفع أن اكتساب الأدب وتفعيله في حياة الناشئ يحقق الإنسانية المؤدية لسعادة البشرية، والارتقاء بالإنسان إلى مدارج الكمال. ومن هنا تتضاءل حيال الأدب كل الجهود المبذولة لتعلمه و الانتفاع به.

ومن أقوال البلغاء في العلم، قول ابن المعتز: «العلم جمال لا يخفى، ونسب لا يجفى»[٧٢] وابن المعتز يؤكد المزية التي ترددت عند كثير من البلغاء والحكماء وسواهم عن القيمة الجمالية للعلم، حتى أصبحت من شوارد الحكم، تتداول مع الأزمان؛ أجل فالعلم جمال لمن تضاءل حظه منه، ونسب لمن جُهل نسبه، وهو قول لا يجافي الحقيقة، فهو جمال لأن بهاءه لا ينضب مع الأيام، وهو نسب لأن العالم مخطوب ودّه، معمور مجلسه، لا سيما من علية القوم وخاصتهم.

ترغيب الشعراء في العلم:

أشاد الشعراء على مر العصور بفضل العلم ومكانة العلماء حتى قصّدت القصائد في هذا الميدان، ونوهوا بدورهما في رقي الإنسان، وازدهار الحضارة، وسيادة الأمم. ومن هنا نجد بعض الشعراء الحكماء يحثون المعلم – بادئ ذى بدء – على تعليم نفسه وتأهيلها لتكون في المقام الجدير بتوجه الآخرين وإرشادهم.

يقول الشاعر[٧٣]:

---

[٧١] ابن المقفع: الأدب الوجيز للولد الصغير، تحقيق: محمد غفراني الخراساني، عالم الكتب، القاهرة، (د.ت)، ص٤٠.

[٧٢] الحصري: زهر الآداب، ص٤٢٩

[٧٣] الأبشيهي: المستطرف من كل فن مستظرف، دار الفكر، بيروت، (د.ت)، ٢٠/١ والبيت الأخير لأبي الأسود الدؤلي، موجود في ديوانه.

www.mtenback.com

يَـا أَيُّهَـا الرَّجُـلُ الْمُعَلِّـمُ غَـيْرَهُ هَـلاَّ لِنَفْسِـكَ كَـانَ ذَا التَّعْلِيْـمُ
تَصِفُ الدَّوَاءَ لِذِي السَّقَامِ وذي الضَّنَى كَيْمَـا يَصِـحَّ بِـهِ وَأَنْـتَ سَـقِيْمُ
فَابْدَأْ بِنَفْسِكَ فَانْهَهَـا عَـنْ غَيِّهَـا فَإِذَا انْتَهَـتْ عَنْـهُ فَـأَنْتَ حَكِيْـمُ
فَهُنَاكَ يُقْبَلُ مَـا تَقُـوْلُ وَيُهْتَـدَى بِـالْقَوْلِ مِنْـكَ وَيَنْفَـعُ التَّعْلِيْـمُ
لاَ تَنْـهَ عَـنْ خُلُـقٍ وَتَـأْتِيَ مِثْلَـهُ عَـارٌ عَلَيْـكَ إِذَا فَعَلْـتَ عَظِيْـمُ

هذه الأبيات في تقويم المعلم تعالج قضية جوهرية وهي النقد الذاتي قبل توجيه الآخرين، لا سيما للدعاة والمصلحين والموجهين، وهي معالجة منطقية تترتب فيها النتائج على المقدمات، فإذا صلحت المقدمات صحت النتائج، وإذا لم يتم هذا التقويم الذاتي، فعملية التعليم لا تحقق جدواها، وفاقد الشيء لا يعطيه! وقد ورد في هذا الشأن قول للإمام علي كرم الله وجهه: «من نصّب نفسه للناس إمامًا فعليه أن يبدأ بتعليم نفسه قبل غيره، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه»[٧٤].

ومن قول أحد الشعراء منوهًا بفضل العلم مرغّبًا فيه[٧٥]:

الْعِلْمُ أَنْفَسُ شَـيءٍ أَنْـتَ ذَاخِـرُهُ مَنْ يَدْرُسِ الْعِلْمَ لَمْ تَدْرُسْ مَفَـاخِرُهُ
أَقْبِلْ عَلَى الْعِلْمِ وَاسْـتَقْبِلْ مَقَـاصِدَهُ فَـأَوَّلُ الْعِلْـمِ إِقْبَـالٌ وَآخِـرُهُ

يبرز الشاعر قيمة العلم الذي يعد أنفس شيء يدخره الإنسان. والجهد الذي يبذله الإنسان في اكتسابه لا يلبث أن يتحول إلى عملية تراكمية ارتقائية تجسد مفاخر الدارس ومآثره على مدى الأيام. ومن ثمّ حتى تجنى ثمار هذا العلم ينبغي المثابرة على تحصيله بشغف واهتمام في كل مراحل التعليم.

---

[٧٤] الأبشيهي: المستطرف، ١/٢٠.

[٧٥] الأبشيهي: المستطرف، ١/٢١.

www.mtenback.com

وللعلم عند الشاعر البستي وظيفة جوهرية تنهض بتحقيق فوائده يقول[٧٦]:

إِذَا لَمْ يَزِدْ عِلْمُ الْفَتَى قَلْبَهُ هُدى ... وَسِيْرَتَهُ عَدْلاً وَأَخْلاَقَهُ حُسْنا

فَبَشِّرْهُ أَنَّ اللهَ أَوْلاَهُ فِتْنَةً ... تُغَشِّيه حِرْمَانًا وَتُوسِعُهُ حُزْنا

يقيم الشاعر علاقة تكافؤ بين الدور القيمي للعلم الذي يحقق إنسانية الإنسان بقيم الخير والحق والهداية، ويبين قطف ثماره المرجوة، فإذا توارت الأولى أضحت ثمرته حرمانًا وحسرة.

كما دعا أحد الشعراء النشء لطلب العلم بتلك الثنائية التي تجسد بُعْديه: المرجعي، والاجتماعي[٧٧]:

تَعَلَّمْ إِذَا مَا كُنْتَ لَسْتَ بِعَالِمٍ ... فَمَا الْعِلْمُ إِلاَّ عِنْدَ أَهْلِ التَّعَلُّمِ

تَعَلَّمْ فَإِنَّ الْعِلْمَ أَزْيَنُ لِلْفَتَى ... مِنَ الْحُلَّةِ الْحَسْنَاءِ عِنْدَ التَّكَلُّمِ

ويرسم الشاعر المكانة الفكرية والاجتماعية للمتعلم من خلال رسم صورة تقابل بين العالم والجاهل[٧٨]:

تَعَلَّمْ فَلَيْسَ الْمَرْءُ يُوْلَدُ عَالِمًا ... وَلَيْسَ أَخُوْ عِلْمٍ كَمَنْ هُوَ جَاهِلُ

وَإِنْ كَبِيْرَ الْقَوْمِ لاَ عِلْمَ عِنْدَهُ ... صَغِيْرٌ إِذَا الْتَفَّتْ عَلَيْهِ الْمَحَافِلُ

أما الشاعر خليل مطران فيرى أن العلم ينهض بالإنسان من صفته الحيوانية إلى أعلى مراتب الكمال الإنساني، قائلاً[٧٩]:

إِنْ لِمْ يَكُنْ عِلْمٌ فَإِنَّكَ وَاجِدٌ ... أُمَمًا تُسَاقُ كَأَنَّهَا أَنْعَام

---

[٧٦] الأبشيهي: المستطرف، ١/٢١.

[٧٧] الأبشيهي: المستطرف، ١/٢١.

[٧٨] أحمد قبش: مجمع الحكم والأمثال، ص٣٤٦.

[٧٩] أحمد قبش: مجمع الحكم والأمثال، ص٣٤٧.

www.mtenback.com

بِالْعِلْمِ يُدْرَكُ أَقْصَى الْمَجْدِ مِنْ أُمَمٍ وَلاَ رُقِيَّ بِغَيْرِ الْعِلْمِ لِلأُمَمِ

هكذا تتنوع رؤى الشعراء في بيان فضائل العلم ومزاياه، فهناك من وصف دوره القيمي في بناء الشخصية، ومنهم من عكس قيمته الاجتماعية والفكرية، وهناك من جسد وظيفته النفسية، يقول أحدهم[٨٠]:

الْعِلْمُ يُحْيِي قُلُوْبَ الْمَيِّتِيْنَ كَمَا تَحْيَا الْبِلاَدُ إِذَا مَا مَسَّهَا الْمَطَرُ

وَالْعِلْمُ يَجْلُو الْعَمَى عَنْ قَلْبِ صَاحِبِهِ كَمَا يُجَلِّي سَوَادَ الظُّلْمَةِ الْقَمَرُ

عرض الشاعر الأثر النفسي في إحياء النفوس، وجلاء البصائر، مستخدمًا المقابلات لتعميق هذه السمات.

وتتعدد تطلعات الشعراء لفضل العلم والترغيب فيه، فمنهم من يرى أنه الباعث الحقيقي للحسب والمجد، وهو وطن يبدد العزلة النفسية في بلاد الغربة، يقول الشاعر[٨١]:

يُعَدُّ رَفِيْعُ الْقَوْمِ مَنْ كَانَ عَالِمًا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي قَوْمِهِ بِحَسِيْبِ

وَإِنّ حَلَّ أَرْضًا عَاشَ فِيْهَا بِعِلْمِهِ وَمَا عَالِمٌ فِي بَلْدَةٍ بِغَرِيْبِ

وعلى هذا فالعلم حصن منيع يصون صاحبه عن الدنايا، ويشيد له المجد، فلا وضاعة نسب، ولا غربة عن وطن، مع التقدير والإعزاز.

ولعلنا بهذه المقتطفات عن مكانة العلم وصور الترغيب فيه قد اطلعنا على نماذج من الصور المضيئة التي يزخر بها تراثنا الضخم، هذا التراث الذي ينبغي إحياؤه بمزيد من الوعي المتجدد لربط ثقافتنا المعاصرة بماضينا المجيد، للحفاظ على سماته، وإبراز إيجابياته إلى الأجيال لتستعيد أمجادها، ومكارم أخلاقها، فهو الأرضية لكل تطور، وحياة، ونماء.

---

[٨٠] ابن عبد ربه: العقد الفريد، تحقيق: أحمد أمين وآخرين، دار الكتاب العربي، بيروت، (١٩٨٣م) ص٢١١.

[٨١] ابن قتيبة الدينوري: عيون الأخبار، دار الكتب المصرية، القاهرة، (١٩٧٣م)، ٢/١٢٠.

www.mtenback.com

ماهية العلوم وأنواعها:

كان لموقف الإسلام من العلم، والدعوة إلى التدبر في مظاهر هذا العالم الكونية والروحية، والعقلية، والطبيعية الأثر الواضح في حدوث حركة علمية نشطة، تنوعت فيها العلوم، وتوسعت آفاقها، وتعددت فوائدها، مما حقق حركة توازن في المجتمع توائم بين حاجات الفرد والجماعة المسلمة، ومقتضيات وجودهما. ومن ثمّ أهدت هذه العلوم للفكر الإنساني رؤية جديدة في كثير من مجالات نشاطه، منطلقة من التصور الإيماني للعلاقة بالله، والكون، والإنسان، والحياة، مجسدةً قيم الخير والإيمان، والعدل، والحرية، والإخاء، والمساواة.

وهذه العلوم التى عني بها الأسلاف قد توزعتها ثلاثة محاور رئيسة:

- العلوم الدينية.
- علوم العربية، وهي العلوم التي كانت لغة علوم الدين وأساس بيانها ونقلها.
- العلوم الدنيوية.

العلوم الدينية:

كان لاعتناق الناس الإسلام وامتلاكه عليهم عقولهم ونفوسهم، أثره الكبير في حياتهم: الدينية، والعقلية، والاجتماعية، ومنها: العلم، فقد ظل الدين أساس الحركات العلمية؛ فعلم الفقه ارتكزت أحكامه على ماورد في القرآن الكريم والحديث النبوي.

وبحوث العلماء دارت حول الدين من تفسير وفقه وحديث[٨٢]. وعلم البلاغة وضعت قواعده ومصطلحاته للكشف عن أسرار الإعجاز القرآني وبلاغته.

وقد كون الصحابة الأوائل لهذه الحركة العلمية مدارس كبيرة أخذ فيها الخلف عن السلف، حيث انتشرت هذه المدارس في آفاق العالم الإسلامي، في مكة والمدينة، والكوفة، والبصرة، واليمن، وخراسان والشام، ومصر. ومن ثمّ تكونت طبقة من

[٨٢] د. أحمد أمين: ضحى الإسلام، ٨/٢

www.mtenback.com

المعلمين العاملين الذين اهتموا بتعليم الناشئة: القرآن والشعر، وما يتصل بهما من السنن والفرائض، والنحو و العروض[٨٣].

وكانت تندرج هذه العلوم التي عني بها الأسلاف تحت مسمى العلوم العقلية، والعلوم النقلية، كما أشار إلى ذلك ابن خلدون، وحدّث عن مفهوم هذين النوعين قائلاً: «اعلم أن العلوم التى يخوض فيها البشر ويتداولونها في الأمصار تحصيلاً وتعليمًا على صنفين: صنف طبيعي للإنسان يهتدي إليه بفكره، وصنف نقلي يأخذه عمن وضعه. والأول هي، العلوم الحكميَّة الفلسفية، وهي التي يمكن أن يقف عليها الإنسان بطبيعة فكره، ويهتدي بمداركه البشرية إلى موضوعاتها ومسائلها وأنحاء براهينها، ووجوب تعليمها، حتى يَقِفَهُ نظره ويحثه على الصواب من الخطأ فيها من حيث هو إنسان ذو فكر. والثاني هي العلوم النقلية الوضعية، وهي كلها مستندة إلى الخبر عن الواضع الشرعي ولا مجال فيها للعقل إلاّ في إلحاق الفروع من مسائلها بالأصول. وأصل هذه العلوم النقلية كلها هي الشرعيات من الكتاب والسنة. وما يتعلق بذلك من العلوم التى تهيّئها للإفادة ثم يستتبع ذلك علوم اللسان العربي الذي هو لسان الملّة التي نزل بها القرآن...»[٨٤].

وقد لاحظ ابن خلدون أن العلوم العقلية أو الطبيعية تشترك فيها كل الأمم، لأن الإنسان يهتدي إليها بعقله، في حين أن العلوم النقلية خاصة بالملة الإسلامية وأهلها[٨٥].

والملاحظ أن هذه الحركة العلمية إلى ماقبل العصر العباسي لم تتجه نحو التخصص، إذ كانت الثقافة الدينية مجموعة واحدة تشمل: التفسير، والحديث، والفقه، وما يلزمهما من لغة وشعر، حتى أطل القرن الثاني الهجري فشرع علماء الإسلام

---

[٨٣] د.شوقي ضيف: العصر العباسي الأول، الطبعة السادسة، دار المعارف بمصر، (١٩٧٦م)، ص٩٨.

[٨٤] ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت) انظر: ص٤٣٥.

[٨٥] ابن خلدون، المقدمة، ص٤٣٦.

www.mtenback.com

بالتخصص في التأليف، فراحوا يدونون علوم الحديث، والفقه، والتفسير، والسيرة، وكثر تدوين العلم وتبويبه. وقبل هذا العصر كان الأئمة يتكلمون من حفظهم، أو يروون العلم من صحف غير مرتبة[٨٦].

وفي العصر العباسي وضعت أسس كل العلوم النقلية، بمعنى أنه أصبح لها منهج يحدد قضاياها، وينظم أجزاءها، وكان هذا المنهج يعتمد على الرواية، وصحة السند، «فالمؤلفون في التفسير في ذلك العصر يعتمدون على نقل ماروي من تفسير الآيات عن الصحابة والتابعين، فإن زادوا شيئًا فترجيح أحد هذه الأقوال، وكذلك الشأن في الحديث، فأهم ما يشغل المحدث جمع الأحاديث، وامتحان أسانيدها لمعرفة جيدها من رديئها وهكذا.»[٨٧] و«في أقل من خمسين عامًا من آخر الدولة الأموية إلى صدر الدولة العباسية كانت أغلب العلوم قد دونّت ونظّمت، سواء في ذلك العلوم النقلية من علوم: القرآن، والحديث، والفقه، وأصوله، وعلوم اللغة والأدب على اختلافها، والعلوم العقلية من علوم: الرياضة والمنطق، والفلسفة والكلام»[٨٨].

وكان نشاط العلماء المسلمين في تدوين العلوم محط الإعجاب، إذ نظّموا أنفسهم في فرق عمل، كل فرقة تسعى لنشر العلم، وغزو الجهل، وكان من نتاج هذه الفرق العلمية الدؤوبة المنظمة تسهيل الرجوع لهذه العلوم بتوصيف موضوعاتها، وتصنيف قضاياها الكلية والجزئية بحيث يجد العالم، والباحث، والمتعلم ما يحتاجه من المسائل المطلوبة، ويأتي في الصدارة وضع مصطلحات كل علم من العلوم الذي قد ينضوي في ثناياه علوم أخرى تعين على فهمه، واستجلاء آفاقه، فمثلاً عرّف علم التفسير بأنه: «علم يفهم به كتاب الله المنّزل على محمد ﷺ وبيان معانيه، واستخراج أحكامه

---

[٨٦] أحمد أمين: ضحى الإسلام، ١١/٢

[٨٧] المرجع السابق، ١٦/٢

[٨٨] المرجع السابق، ١٩/٢

www.mtenback.com

وحكمه، واستمداد ذلك من علم اللغة والنحو، والتصريف، وعلم البيان، وأصول الفقه، والقراءات. ويحتاج إلى معرفة أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ»[٨٩].

وهكذا نشط العلم وازدهر في عهد العباسين، وإن كانت بذرة النشاط قد بدأت منذ العصر الأموي، فالتأليف شمل كل فرع من العلوم، وعدّ المؤلفون والمؤلفات فيه بالمئات.

علوم العربية:

كان مفهوم العلم عند عرب الجاهلية«يطلق على ما ينافي الجهل بمعارف الجاهليين المحدودة، وكانت لا تتعدى: الشعر، والكهانة، والقيافة، والخطابة، والأنساب. فلما ظهر الإسلام كان يراد بالعلم ما ينافي الجهل بما ظهر من المعارف الجديدة، وهي: الكتاب، والسنة، وأخبار الملاحم.

ولما ازدادت معارف العرب صارت تطلق على ما ينافي الجهل بما ظهر من المعارف الجديدة، كالفقه والتفسير، وشرح السنة، والتاريخ، وطبقات رواة الحديث، والنحو. ثم انتشرت العلوم الكونية فيهم وتشعبت المعلومات لديهم فصار يستعملها كل فريق فيما هو بسبيله، فاتسع مدلولها اتساعًا يناسب اتساع مجالات المعارف الجديدة»[٩٠].

وكان لا تساع الفتوحات الإسلامية أثره الفاعل في نشر الدين الإسلامي وشريعته السمحة، مما هيّأ لأبناء الأمم المفتوحة الدخول في دين الله أفواجًا يقبلون بشغف وحنين لتعلم تعاليم الدين الحنيف، وكان في صدارتها تعلم اللغة العربية، لغة القرآن، التي أصبح تعلمها ليس واجبًا دينيًا تعبديًا فحسب، بل ضرورةً حضارية إذ

---

[٨٩] محمد علي الفاروقي التهانوي: كشاف اصطلاحات الفنون، تحقيق: د. لطفي عبد البديع، المؤسسة المصرية العامة، (١٩٦٣م) ص٣٤.

[٩٠] محمد فريد وجدي: دائرة معارف القرن العشرين، ٦/٥٨٤.

www.mtenback.com

أصبحت اللغة الأولى عالميًا وتآلفت شعوبها في نظام أخوي وحدوي قوامه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[٩١] وقولة تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[٩٢].

ومن ثمّ انتشرت العلوم العربية بفضل الدين، وبدفع منه، يقول أحمد أمين: «وأما العلوم اللسانية فكان مبعثها أيضًا دينيًا، فأهم سبب لوضع النحو المحافظة على القرآن من أن يلحن الناس فيه، وأهم باعث لجمع اللغة معرفة لغة القرآن وتفسير غريبه، وهكذا.. ثمّ تحوّل بعد ما كان وسيلة إلى غاية تقصد لذاتها»[٩٣].

واتسعت حركة التدوين لعلوم العربية وخصوصًا في صدر العصر العباسي. حيث كانت أغلب العلوم قد دوّنت ونظّمت، سواء في ذلك العلوم النقلية أو العقلية[٩٤].

وكان منهج البحث والتأليف في هذه العلوم يحذو حذو علماء التفسير والحديث من اعتمادهم على الرواية وصحة السند، فاللغوي يروي ما سمعه من العرب، أو ينقل ما سمع من علماء جالسوا العرب وأخذوا عنهم مشافهةً، والأديب يروي ما سمع من أعرابي أو عالم، مع حرصه على ذكر السند كما يفعل المحدّث،وهذا ما نلمسه في منهج التأليف في كتاب الاغاني[٩٥].

وقد عزّز حركة التدوين لعلوم العربية، شيوع تعلمها من أبناء الأمم الأخرى كالفرس والروم وسواهم، وقد ساهم بهذه الحركة العلمية ظهور جيل جديد من أبناء

---

[٩١] سورة الحجرات: ١٠.

[٩٢] سورة الحجرات: ١٣.

[٩٣] المرجع السابق، ٣٦٣/٢.

[٩٤] المرجع السابق، ١٩/٢.

[٩٥] أحمد أمين: ضحى الإسلام، ١٦/٢.

www.mtenback.com

هذه الأمم المستعربة يجيد اللغة العربية كأهلها، فدوّن في العلوم العربية على النحو الذى كانت تدوّن به العلوم في اللغات الأخرى[٩٦].

كما ساند هذه الحركة العلمية اللغوية انتشار أبناء الجزيرة العربية في أرجاء البلدان المفتوحة مثل: الشام، العراق، مصر، خراسان، وسواها. ومع توطن هؤلاء في البلدان الجديدة، واتصالهم بها، وتكيفهم معها إلا أن كثيراً منهم كانت تتنازعهم مشاعر الحنين والشوق إلى عاداتهم وقيمهم القديمة[٩٧]. وقد تبدّى هذا التيار بظهور كثير من العلماء «يتخصصون بمعرفة الشعر وروايته، والأنساب وتشعباتها، وأخبار الجاهلية وأيامها»[٩٨].

وقد أدت هذه الأهمية لعلوم العربية لاسيما الشعر إلى اهتمام اللغويين بالبصرة والكوفة بجمع الأشعار القديمة لمن بعدهم من الأجيال سواء كان في دواوين لأفراد الشعراء، أو في مجموعات شعرية لقبائل أو طبقات اجتماعية معينة، أو في مختارات ومنتخبات[٩٩].

والملاحظ أن علوم الأدب قد تداخلت مع علوم اللغة العربية والدين، يقول ابن خلدون عن مفهوم الأدب في ذلك العصر، بأن هذا العلم يشمل الإجادة في فني المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومسائل من اللغة والنحو مع ذكر بعض من أيام العرب، وذكر المهم من الأنساب الشهيرة، والأخبار العامة.

---

[٩٦] د. أحمد أمين: ضحى الإسلام، ص /١٤.

[٩٧] انظر عبد القادر القط: في الشعر الإسلامي والأموي، دار النهضة العربية، بيروت، (١٩٧٩م) ص٧١.

[٩٨] شوقي ضيف: العصر الإسلامي، الطبعة السادسة، ذار المعارف بمصر، (د.ت) ص٢٠٠.

[٩٩] انظر: كارل بروكمان: تاريخ الأدب العربي، نقله: عبد الحليم النجار، دار المعارف، ط٥، (١٩٨٣م) ٦٧/١.

www.mtenback.com

ثم يقول محدداً: «ثم إنهم إذا أرادوا حدّ هذا الفن قالوا: الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارها، والأخذ من كل علم بطرف، يريدون من علوم اللسان، أو العلوم الشرعية من حيث متونها فقط، وهي القرآن والحديث...»[١٠٠].

وقد تركزت الجهود الأدبية في عدد من المؤلفات عدّ مؤلفوها أعلام الأدب في ذلك العصر، يقول ابن خلدون:«وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين وهي: أدب الكاتب لابن قتيبة، وكتاب الكامل للمبرّد، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ، وكتّاب النوادر لأبي علي القالي البغدادي، وما سوى هذه الأربعة فتبع لها، وفروع عنها»[١٠١].

العلوم الدنيوية:

شغف الأسلاف بالعلوم الدنيوية كالطب والرياضة والفلك والمساحة وسواها، مع شغفهم بالعلوم الدينية للعلاقة الوثيقة بينهما، فعلى سبيل المثال اهتموا بعلم الطب لأن فيه صحة الأبدان، وصحة الأبدان عامل هام لسلامة العقول، وفقه الدين، وأداء التكاليف الشرعية. وعنوا بعلم الحساب للاستعانة به على علم الفرائض«المواريث» وعلى حساب الأيام والسنين. كما اهتموا بعلم الفلك لإثبات رمضان والعيدين، وضبط أوقات الصلاة. كذلك كانت عنايتهم بعلم المساحة لتحديد جهة القبلة، ومسالك الحج[١٠٢].

وهكذا كان الارتباط الوثيق بين العلوم الدينية والدنيوية، وفضلاً عن ذلك فإن علوم الدين تتضمن كل علوم الدنيا، لأن الحياة الدنيا وما يجسدها من أقوال وأفعال تخضع لمعايير الدين ومنهجه ونظامه، إذ لا تستقيم الحياة الدنيوية إلا إذا التزمت بمنهج الله.

---

[١٠٠] ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص٥٥٣

[١٠١] ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، ص٥٥٣-٥٥٤

[١٠٢] عمر فروخ: عبقرية العرب في العلم والفلسفة، بيروت، ط٣، (١٩٦٩م)، ص٦٩.

www.mtenback.com

وهذه العلوم الدنيوية قد بدأت بذورها الأولى منذ مطلع العصر الأموي، منذ اختلاط العرب بالأعاجم، فقد اندفعوا يطلبون مالديهم من علوم نافعة، فتعرفوا على «تخطيط المدن، وعمارة المباني، وطريقة استغلال الأرض، وشق الترع والقنوات، كما تعرفوا على طرق جباية الخراج، وضبط الدواوين. وقد دفعتهم حروبهم مع الروم لإنشاء الأساطيل واقتباس بعض أساليبهم الحربية»[١٠٣].

وإلى جانب ذلك تطلّع العرب إلى ما لدى الأجانب من معارف وعلوم نظرية بحتة، كالثقافة الهيلينية التي هي مزيج من الثقافة اليونانية، وثقافات شرقية مختلفة دينية وغير دينية[١٠٤].

وعنوا بالترجمة منذ مطلع العصر الأموي، وممن شغف بذلك خالد بن يزيد بن معاوية، وقد قال عنه الجاحظ: هو أول من ترجمت له كتب في علم النجوم، والطب، والكيمياء. كما ترجم للخليفة عمر بن عبد العزيز كتابٌ في الطب، وترجم للخليفة هشام بن عبد الملك بعض رسائل لأرسطاطاليس، وبعض الكتب الفارسية عن الدولة الساسانية، ونظمها السياسية[١٠٥].

وتابعت هذه الرحلة العلمية المتنوعة مسيرتها في العصر العباسي، ورافقها مزيد من التطور والازدهار، حيث لم تكتف بالنقل بل تعدته إلى التأليف، والتصنيف والابتكار، سواء كانت العلوم نقليه أو عقلية، وأصبح العراق مركز إشعاع حضاري في سائر العلوم والفنون، يقول أحمد أمين: «إن العراق في ذلك العصر كان أهم مراكز الحياة العقلية في فروع العلم والفن، من: تفسير وحديث وفقه، ومن لغة ونحو وصرف، ومن ترجمة كتب فلسفية، وجدّ في تفهمها، والتعليق عليها. ومن مذاهب كلامية، ومن

---

[١٠٣] د. شوقي ضيف: العصر الإسلامي، ص٢٠١.

[١٠٤] المرجع السابق نفسه.

[١٠٥] المرجع السابق، ص٢٠٢-٢٠٣

www.mtenback.com

علوم طبية، ورياضية، ومن غناء وموسيقى، ونقش وتصوير، ومن تأليف في كل هذه العلوم والفنون»[١٠٦].

ومن الجدير بالذكر القول بأن أسلافنا حين استفادوا من الاتصال بحضارات السابقين كانت لهم شخصيتهم العلمية الإسلامية المميزة، تلك التى انعكست في قراءة تلك الحضارات وتلقيها، فأخذوا منها مايلائم عقيدتهم، ومبادئهم، وقيمهم ومكارم أخلاقهم.

وفضلاً عن ذلك فإن الجهود المبذولة في نقل العلوم والمعارف كان لها فوائدها الجمة على ورثة هذه الحضارات أنفسهم، يقول عمر فروخ عن جهد العرب المسلمين وفضلهم على الحضارة الإنسانية: «ثم إننا إذا التفتنا إلى اليونان نفسها، وإلى اليونانين أنفسهم- وهم الذين يجب أن يكونوا ورثة الفلسفة القديمة، والأمناء على نتاج عباقرتهم... وجدنا أمرًا عجبًا: وجدنا أن هؤلاء اليونانين قد فتشوا المكاتب والمدارس والخزائن عما فيها من الكتب فجمعوها وكدسوها في الدهاليز والأقبية، وحالوا بينها وبين طلاب العلم ورواد النور والباحثين عن الحقيقة. وقد أجمع مؤرخو الفلسفة على أن الروم«اليونانين» قد طمروا هذه الكتب منذ دخول النصرانية إلى بلادهم. في هذا العالم المظلم انبرى العرب الذين خلعوا عن أعناق البشر نير الديانات الوثنية والامبراطوريات القديمة... أن يُخرجوا البشر ثانية من الظلمات إلى النور، فعمدوا إلى هذه الكتب فنقلوها إلى العربية، إلى اللغة التى قدّر أهلها العقل حق قدره»[١٠٧].

وقد وضع الأسلاف العرب ركائز الحضارة الإنسانية، يقول د. عبد الكريم عثمان نقلاً عن المؤرخ (د. حتّي) الذي رصد أثر الحضارة الإسلامية في التقدم الإنساني قائلاً: «خلال القسم الأول من القرون لم يساهم شعب من شعوب الأرض

---

[١٠٦] أحمد أمين: ضحى الإسلام، ٢/٧٧.

[١٠٧] د. عمر فروخ: عبقرية العرب في العلم والفلسفة ص٣٢-٣٣

www.mtenback.com

بقدر ما ساهم به المسلمون في التقدم البشري، وظلت اللغة العربية لغة العلوم والآداب، والتقدم الفكري لمدة قرون في جميع أنحاء العالم الممتد آنذاك، وكان من آثارها أيضًا أنه فيما بين القرن التاسع والثاني عشر الميلادي «الثالث والسادس الهجري» فاق ما كتب بالعربية عن الفلسفة، والطب، والتاريخ، والإلهيات، والفلك، والجغرافية كل ماكتب بأي لسان آخر»[١٠٨].

مشروعية العلوم:

- العلوم الواجبة.
- العلوم المباحة.
- العلوم المذمومة.

العلوم الواجبة:

العلوم الدينية، العلوم الدنيوية.

• العلوم الدينية:

خلق الله الإنسان وهيأ له أسباب وجوده، وحدد له الغاية من خلقه في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[١٠٩] ولتحقيق هذه الغاية من الخلق بأجلى مظاهرها، وضع الله سبحانه المنهج الكامل الذي يتلمسه الإنسان، وفق ضوابط وثوابت تمثلت بالعبادة بمفهومها الخاص والعام. حيث ينضوي في مفهوم هذه العبادة تحقيق أمانة الاستخلاف في الأرض.

وعلى هذا فالعبادة بمفهومها الخاص تعني إقامة أركان الإسلام والالتزام بالعبادات والتكاليف الشرعية المتعارف عليها، ولا تصح عبادة يجهل صاحبها صفات

---

[١٠٨] د. عبد الكريم عثمان: معالم الثقافة الإسلامية، مؤسسة الرسالة، بيروت، (د.ت) ص٢٩٤.

[١٠٩] سورة الذاريات: ٥٦.

www.mtenback.com

أدائها، قال ﷺ: «ومن يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»[١١٠] لأن الفقه في الدين هو الذى يؤدي إلى فهم العبادة، وصحة أدائها. والعبادة التى لا يفقه فاعلها ماهية أدائها لا تعدّ عبادة، ومن هنا وجب على كل مسلم مكلّف تعلم أمور دينه[١١١]، وهذا يعني بالضرورة تعلم العلم لأداء العبادة - بمفهومها الخاص - الواجبة على كل فرد مسلم. كما يتضمن هذا الحديث الشريف وجوب تعلم أمور الدين بإطاره الواسع، ونعني به كل علم لا يُستَغْنَى عنه في شؤون حياة المسلمين. وتعلم تلك العلوم يعدّ من فروض الكفاية التي إن فعلها البعض سقطت عن الباقين، وإن أغفلها الجميع أثموا جميعهم، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[١١٢].

● **العلوم الدنيوية:**

وقد خلق الله الإنسان، وحثه على العلم، بما يحقق له صلاح دينه ودنياه، فإذا كان في تعلم العلوم الدينية صلاح الدين ففي تعلم العلوم الدنيوية صلاح الدنيا، ومن ثمّ كان تعلم كل منهما متمماً للأخرى، على اعتبار أن تعلم العلوم الدنيوية جزء من الدين، أو هو الشطر الذي يحققه معنى العبادة بمفهومها العام، وهو: كل عمل يعمله الإنسان في عمران الكون، وسد حاجاته وحاجات مجتمعه تبعًا لما رسمته حدود الشرع، باتباع أوامره واجتناب نواهيه. وهذا يسلمنا إلى أن تعلم العلوم الدنيوية من: طب، وهندسة، وكيمياء، وفلك، وكهرباء، وسواها، يندرج ضمن فروض الكفاية التي إن فعلها البعض سقطت عن الباقين، وإن أغفلها الجميع أثموا كلهم، وعندما حث الإسلام

---

[١١٠] الماوردي: أدب الدنيا والدين، ص٤٤.

[١١١] المرجع السابق نفسه.

[١١٢] سورة التوبة: ١٢٢.

www.mtenback.com

على التعلم هيأ وسائل هذا التعلم، من وسائل الإدراك الحسي والعقلي بما يحقق هذه الغاية، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[١١٣] تفصح هذه الآية عن مقومات الحركة العلمية الذاتية، عند الإنسان، فالسمع والبصر من وسائل الإدراك الحسي، وأما الفؤاد فهو مكمن استقرار المعارف المكتسبة التى هيّأه الله لا ستخدامها في منفعة الإنسان، ومنها دفعه إلى التعرف على حقائق الأمور، وصفات الأشياء وخصائصها ليتابع في حياته مرحلة البحث العلمي السليم، وليكشف من أسرار هذا الكون ما يدل على عظمة الخالق، وبديع صنعه، وتعدد نعمه، مما ينبغي تأمل محصلة هذه الوسائل والنعم، وشكرها حق الشكر. ومن هنا كان التحذير من تعطيل أدوات المعرفة، بعدم الانتفاع بها أو استخدامها في ظواهر الحياة الدنيا فحسب[١١٤]، قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾[١١٥].

ومن الجدير بالذكر أن هناك من يتهاون في الإقبال على هذه العلوم ظنًا بأن العلوم التي حثّ عليها الإسلام هي العلوم الدينية فحسب، ومن ثمّ يظن تعلم تلك العلوم من نافلة العلم بما لا يقتضي الوجوب! لا شك أن هذه النظرة خاطئة، لأن الدين ينظم المجتمع، وهذه العلوم وسيلة فعّالة من وسائل تنظيمه وتكامله، وهذا لن يتأتى إلا بالأخذ بأسباب العلم، لأن علم الدين يتضمن كل علوم الدنيا، لما هو معلوم بأن المكلّف لا يتمكن من ممارسة حياته الدنيوية ممارسة صحيحة إلا إذا كانت تسير وفق منهج صحيح.

---

[١١٣] سورة النحل: ٧٨.

[١١٤] عبد الرحمن الميداني: الأخلاق الإسلامية وأسسها، ص٣٢٢.

[١١٥] سورة الأنفال: ٢٢.

www.mtenback.com

وفضلاً عن ذلك فإن مادة العلم التى حثّ عليها الإسلام ليست مقيدة بعلم الدين وحده، وإنما هي مطلقة تشمل كل علوم الدنيا النافعة[١١٦].

ومن ناحية أخرى فإن العلوم بأمور الحياة، وأسلوب إعمارها، وأداء أمانة الاستخلاف فيها كل ذلك مطلب من مطالب الإسلام مما جاءت على تأييده النصوص الإسلامية المتعددة[١١٧].

وقد عدّ الإمام الغزالي هذه العلوم الدنيوية الواجبة من العلوم المحمودة التي تعدّ من فروض الكفايات لما ترتبط بها مصالح أمور الدنيا[١١٨].

كما يرى أن من العلوم المحمودة التى تندرج في ثنايا فروض الكفايات تعلم الصناعات النافعة، يقول: «إن أصول الصناعات أيضًا من فروض الكفايات، كالفلاحة، والحياكة، والسياسة، بل الحجامة، والخياطة، فإنه لوخلا البلد من الحجام تسارع الهلاك إليهم، وحرجوا بتعريضهم للهلاك، فإن الذي أنزل الداء، وأرشد إلى استعماله، وأعدّ الأسباب لتعاطيه، فلا يجوز التعرض للهلاك بإهماله»[١١٩].

العلوم المباحة:

تقدم معنا أن العلم من أنفس وأشرف الأشياء المكتسبة، وأن تحصيله واجب شرعي، سواء كان وجوبه فرض عين، أم فرض كفاية. وهذه العلوم الواجبة تمثلت في العلوم الدينية والدنيويةمعًا، لما فيهما من صلاح حياة الإنسان.

ومن هنا تعد العلوم المباحة هي العلوم التى ليست بواجبه شرعًا، بل مباحة بيد أن دائرة هذه الإباحة تتقيد بأن لايؤدي اكتسابها للإضرار بالنفس، أو بالمجتمع، وقد

---

[١١٦] د. علي عبد الحليم محمود: تربية الناشئ المسلم، ص٤٢٤.

[١١٧] د. علي عبد الحليم محمود: تربية الناشئ المسلم، ص٤٢٤.

[١١٨] انظر: المهذب في إحياء علوم الدين، إعداد: صالح أحمد الشامي، دار القلم، دمشق، بيروت، (١٩٩٣م)، ص٤٨.

[١١٩] المهذب في إحياء علوم الدين، ص٤٨.

www.mtenback.com

أشار الإمام الغزالي إلى ماهية هذه العلوم في سياق حديثه عن أنواع العلوم قائلاً:«وأما المباح منه فالعلم بالأشعار التى لا سخف فيها، وتواريخ الأخبار، وما يجرى مجراه»[١٢٠].

وتدل عبارة الغزالي بأن العلوم المباحة هي التى يقرأها الإنسان للترويح عن النفس، كالأشعار، والقصص، والصحف، والمجلات، والروايات التاريخية، وما إلى ذلك... على أن تكون هذه القراءة الممتعة لها ضوابطها، بحيث لا تلهي عن واجب،ولا تؤدي إلى فساد أخلاق، وإلا عُدّت من العلوم المذمومة الضارة.

العلوم المذمومة:

تقدم معنا ماهية العلوم الواجبة والمباحة، أما العلوم المذمومة فهي التي تخرج عن هاتين الدائرتين، بمعنى أنها تتعدى حكم الوجوب والإباحة، وتستقل بصفات تدخلها في دائرة المحظورات، التي لا تحصد منها النفس الإنسانية سوى الضرر، سواء الضرر بالنفس، أم بالغير.

وقد رصد الغزالي ماهية هذه العلوم مبيناً دواعي ذمّها قائلاً: بأن العلم لا يذم لعينه، بل يذم في حق العباد لأسباب منها: أن يكون ضاراً بصاحبه أو بغيره، أو أن يكون عديم الفائدة لصاحبه[١٢١]. وقد ضرب أمثلة عدة على هذه العلوم، فمن أمثلة العلم الضار بصاحبه: علم النجوم، الذي هو قسمان: قسم حسابي، محمود، فقد ورد في القرآن الكريم أن مسير الشمس والقمر محدد بدقة تامة إذ قال عزّ وجل: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾[١٢٢]. أما القسم الثاني من علم النجوم - كما يراه الغزالي - فهو

---

[١٢٠] المهذب في إحياء علوم الدين، ص٤٩.

[١٢١] المهذب في إحياء علوم الدين، ص٥٤-٥٥

[١٢٢] سورة الرحمن: ٥.

www.mtenback.com

مضّر بالخلق، لمساسه سلامة العقيدة، بمعنى قد يخبر الخلق بأن هناك حوادث وآثارًا تحدث عقب سير الكواكب، فيظن بعض الناس بأن الكواكب هي المؤثرة! ويعظم وقعها في النفوس، وينمحي ذكر الله تعالى عن القلب، لأن الضعيف يقصر نظره على الوسائط، أما العالم الراسخ فيعلم أن الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمر الله تعالى[١٢٣].

أما العلم الثاني المذموم فهو الذي لا طائل من البحث فيه، فيكون عديم الفائدة، مضيعًا للوقت، فهو مذموم في حق المتعلم، كدقيق العلوم قبل جليلها، وخفيها قبل جليّها، وكالبحث في الأسرار الإلهية. ومن العلم المذموم: «الشطح» وهو ما أحدثه الصوفية من دعاوى في عشق الذات الإلهية، وارتفاع الحجاب، والمشاهدة بالرؤية، وسوى ذلك، كذلك من العلم المذموم: «الطامات» وهو صرف ألفاظ الشرع عن ظواهرها المفهومة إلى أمور لا يَرِدُ منها إلى الإفهام فائدة[١٢٤]. وعلى العموم فقد أجمع العلماء: أن أفضل العلوم ما قرّب إلى الله سبحانه، وشرها: السفسطة، والجدل، والإلحاد، والزندقة[١٢٥].

من فضائل العلم:

فضل العلم على العبادة:

شكل العلم ملمحًا بارزًا من معالم الحضارة الإسلامية، إذ من المعلوم أن العلم أحد العناصر الرئيسة المكونة للحضارة الإنسانية التي عدّها مؤرخو الحضارة عناصر أربعة: «الموارد الاقتصادية، والنظم السياسية، والتقاليد الخلقية، ومتابعة العلوم والفنون»[١٢٦].

---

[١٢٣] المهذب في إحياء علوم الدين، ص٥٥.

[١٢٤] انظر المهذب في إحياء علوم الدين، ص٥٨-٥٩.

[١٢٥] المنذري: الترغيب والترهيب، هامش ١/١٠٧.

[١٢٦] د. مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا، ص٦٢.

www.mtenback.com

وقد أعلت الحضارة الإسلامية من شأن العلم فرفعته فوق بعض أبواب العبادة، إذ ورد الكثير من الأحاديث النبوية، والأقوال المأثورة تبين هذه الغاية، منها قوله ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم رجلاً»[١٢٧]. وهذا الحديث الشريف يرسم التباين الشاسع بين فضل العالم والعابد. فالعالم يقترب بعلمه من هدي النبوة لتفقهه في الدين، والعابد دون علم يتعبد اقتداء لا فقهًا وتفكرًا!

والإمام السافعي يتمثل فضل العلم على العبادة، قائلاً:«طلب العلم أفضل من النافلة»[١٢٨].

والشافعي وهو يرسم هذا التفاضل يدرك قيمة العلم ومكانته، لأن محصلة فائدته أوسع وأشمل من العبادة، ففضل العلم يعمُّ أفراد الأمة الإسلامية جمعاء، في حين ينحصر أجر العبادة على المتعبد دون سواه.

فضل العلم على المال:

المال عصب الحياة، وهو ركيزة البناء الاقتصادي للأمة، وأحد العناصر المؤسسة لحضارتها، ومع ذلك فقد حظي العلم بالحظ الوافر إزاء المال. ذكر البغدادي بسنده عن تأويل ما جاء في سورة الكهف في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا﴾[١٢٩] قال:«صحف علم خبّأها لهما أبوهما»[١٣٠] إذن فالكنز المدخر لإشادة المستقبل كنز علم لا كنز مال!

ومن الذين أشادوا بفضل العلم على المال الإمام علي رضى الله عنه قال:«العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال. العلم حاكم والمال محكوم عليه. مات

---

[١٢٧] الماوردي: أدب الدنيا والدين، ص٤١.

[١٢٨] المهذب في إحياء علوم الدين، ص٤٤.

[١٢٩] سورة الكهف: ٨٢.

[١٣٠] أبو بكر البغدادي: تقييد العلم،تحقيق: يوسف العش، دار إحياء السنة النبوية، ط٣، (١٩٨٨م)، ص١١٧.

www.mtenback.com

خزّان الأموال، وبقي خزّان العلم، أعيانهم مفقودة، وأشخاصهم في القلوب موجودة»[١٣١].

يجري الإمام علي تلك المقارنات التي أفضت إلى فروق حادة تميز بها العلم على المال، فالعلم يصون صاحبه عن المفاسد والمخاطر بما يتميز به من الفضائل الخلقية، وهو بهذه الفضائل يرقى إلى مستوى الحكَم لا المحكوم عليه، موضحًا أن أصحاب الأموال اندثرت ذكراهم مع أموالهم، وأهل العلم بقيت مآثرهم وعلومهم نجومًا ساطعة تضيء دروب الإنسانية، مقترنة مع ذكراهم الخيّرة في القلوب والعقول.

ويقول أحد البلغاء عن مكانة العلم إزاء المال: «العلم عصمة الملوك، لأنه يمنعهم من الظلم، ويردّهم إلى الحلم، ويصدهم عن الأذية، ويعطفهم على الرعية، فمن حقهم أن يعرفوا حقّه، ويستبطنوا أهله[١٣٢]. فأما المال فظل زائل، وعارية مسترجعه، وليس في كثرته فضيلة، ولو كانت فيه فضيلة لخصّ الله به من اصطفاه لرسالته، واجتباه لنبوته، وقد كان أكثر أنبياء الله تعالى مع ما خصّهم الله به من كرامة، وفضّلهم على سائر خلقه فقراء لا يجدون بُلْغة[١٣٣]، ولا يقدرون على شيء حتى صاروا في الفقر مثلاً، قال البحتري[١٣٤]:

فَقْرٌ كَفَقْرِ الأَنْبِيَاءِ وَغُرْبَةٌ ... وَصَبَابَةٌ لَيْسَ الْبَلاَءُ بِوَاحِدِ

حقًا.. لقد شكل العلم ينبوعًا ثرًا تتدفق منه جداول كثيرة، ينهض كل منها بقيمة خلقية تسعى لرد الظلم والجهل، والأذى، والقسوة. وهو على هذا يضع ضوابط تنظيم المجتمع، ورفاهيته. أما المال فلا يعدو كونه وسيلة لاغاية تفقد خصوصيتها بنفاد

---

[١٣١] الماوردي: أدب الدنيا والدين، ص٤٨

[١٣٢] يستبطنوا أهله: أى يتخذونهم بطانة لهم وأعوانًا على الرأي والعمل.

[١٣٣] بلغة: ما يتبلغ به من قليل الزاد.

[١٣٤] الماوردي: أدب الدنيا والدين، ص/٤٧

www.mtenback.com

مهمتها، في حين يحتفظ العلم بتلك الفضائل السامية التي لا ينضب معينها مع الأيـــام. ولهذا فضّل الله سبحانه وتعالى الأنبياء بفضيلة العلم دون المال، حتى أصبح الفقر سمـــة من سمات الأنبياء.

ولأبي الأسود الدؤلي رؤية معيارية بين العلم والمال، يقول[١٣٥]:

الْعِلْمُ كَـــنْزٌ وَذُخْـــرٌ لاَ نَفَـــادَ لَـــهُ نِعْمَ الْقَرِيْنُ إِذَا مَا صَـــاحِبٌ صَحِبَـــا

لقد صدّر أبو الأسود رؤيته بصورة تقريرية يعلي فيها من مكانة العلـــم علـــى المال، رغم أن كلاً منهما يمثل رصيداً يدخر مع الأيام، لكن رصيد المـــال لايلبـــث أن ينفد وتظل فوائد العلم وثماره المادية والمعنوية والاجتماعية جانية القطاف. فالعلم رصيد مادي لأن العلم يجني لصاحبه المال. وهو مدخر معنوي لما يحقق من المكانة الاعتباريـــة، والفضائل الخلقية، والمتعة النفسية. وهو مدخر اجتماعي لكونه نعم الصاحب الـــوفي حين يعز الأصحاب، ويُفتقد الأوفياء!!

فضل العلم على الجمال:

ومع رصد الرؤى التقويمية للعلم إزاء المعايير الأخرى ينهض العلم معلمًا شـــامخًا إزاء الجمال، وقد اطلعنا آنفًا على إشادة الأدباء والبلغاء بالعلم ومنها تفضيله على المال والجمال[١٣٦]، وأنه قيمة تعويضية لمن لم ينل منهما حظًا وافرًا، إلى جـــانب أن المـــال يفنى، والجمال يذوي، في حين يزدهر العلم ويتطور، ويبقى أثره موصولاً لمـــا بعـــد الحياة، وللشاعر حفني ناصف رؤية أخرى للعلم والجمال، يقول[١٣٧]:

فَأَيُّ حُسْنٍ كَحُسْنِ الْعِلْمِ فِي صِغَـــرٍ وَأَيُّ قُبْحٍ يُضَاهِي الْجَهْلَ فِي الْكِـــبَرِ

---

[١٣٥] أبو الأسود الدؤلي: الديوان، تحقيق: محمد حســـن آل ياســـين، دار الكتـــاب الجديـــد، بـــيروت، (١٩٧٤م)، ص١٥٠

[١٣٦] انظر ص١٦، ٢٥ من هذا البحث.

[١٣٧] أحمد قبش: مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي، ص/٣٤٥

www.mtenback.com

يُعلي الشاعر من أهمية اكتساب العلم في مرحلة الصبا، حيث يزدان جمال الصبا بجمال العلم، وأي قبح يوازي هرم العمر مع قبح الجهل إذ يصبح القبح مركبًا! وعلى هذا يختزن العلم مزايا المال والجمال التى لا تبليها الأيام، مع التفرد بإثراء الفكر، وتغذية الوجدان.

وتطّرد ظاهرة العلم كقيمة جمالية، ومدى أثرها في حياة الإنسان، يقول عبد الله ابن المقفع:«العلم زين لصاحبه في الرخاء، ومنجاة له في الشدة، بالأدب تعمر القلوب، وبالعلم تستحكم الأحلام»[١٣٨].

يرى ابن المقفع أن العلم الموشى بالأدب أشد اتصالاً بالشخصية الإنسانية وتكاملها، ومعالجة مشاكلها، فالأدب يهذب النفوس، ويعمر القلوب بالقيم السامية، والعلم يُنمي العقول لتستبين معالم الخير والرشاد.

فضل العلم على النسب:

ومن فضائل العلم المعنوية أنه يسمو بشرفه ورفعة قدره على المفاخرة بالأنساب ومجد الأحساب. بل إن العلم يرفع النسب الوضيع ويعليه بعد خمولٍ ونسيان. وهذا يعني بالمقابل أن غياب العلم يعني حلول الجهل بآفاته وأمراضه وعلله ولا ينفع إذ ذاك حسب ولا نسب وقد أخذ هذا المعيار يمثل الرأي الجمعي للأمة الذى جسده غير شاعر، يقول الخزاعي[١٣٩]:

الْعِلْمُ يَنْهَضُ بِالخَسِيسِ إِلَى الْعُلا وَالْجَهْلُ يَقْعُدُ بِالْفَتَى الْمَنْسُوبِ

وقال الإمام الشافعي[١٤٠]:

---

[١٣٨] ابن المقفع: الأدب الصغير و الأدب الكبير، شرح د. مفيد قميحة، دار الشواف،الرياض،١٩٨٩م، ص٦٩.

[١٣٩] أحمد قبش: مجمع الحكم والأمثال، ص٣٤٣.

[١٤٠] الشافعي: ديوان الشافعي، ص٧٤

www.mtenback.com

رَأَيْتُ الْعِلْمَ صَاحِبُهُ كَرِيْمًا ... وَلَوْ وَلَدَتْهُ آبَاءٌ لِئَامُ
وَلَيْسَ يَزَالُ يَرْفَعُهُ إِلَى أَنْ ... يُعَظِّمَ أَمْرَهُ الْقَوْمُ الْكِرَامُ
فَلَولاَ الْعِلْمُ مَا سَعِدَتْ رِجَالٌ ... وَلاَ عُرِفَ الْحَلاَلُ وَلاَ الْحَرَامُ

وقال آخر[١٤١]:

يُعَدُّ رَفِيْعُ الْقَوْمِ مَنْ كَانَ عَالِمًا ... وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي قَوْمِهِ بِحَسِيبِ
وَإِنْ حَلَّ أَرْضًا عَاشَ فِيْهَا بِعِلْمِهِ ... وَمَا عَالِمٌ فِي بَلْدَةٍ بِغَرِيْبِ

وعلى هذا فالعلم يرتقي بالإنسان المغمور إلى المكانة العليا في المجتمع، وهو المعادل الموضوعي للمنبت الكريم، والنسب الأصيل، والمجد الرفيع، وقد لا يقتصر العلم على تحقيق مكانة النسب فحسب، بل يسبغ على صاحبه أرفع الأنساب، فمن قولهم المأثور: «العلم أشرف الأحساب»[١٤٢] إلى جانب أنه يحقق لصاحبه من النفوذ والمكانة ما يسمو به إلى ذروة سنام الطبقة الحاكمة، يقول أبو الأسود الدؤلي: «الملوك حكام على الناس، والعلماء حكام على الملوك»[١٤٣].

والحق أن العلم أشرف نسب لأن معدنه غير التراب، بل هو الذى سرت به لغة السماء! والعلماء حكام على الملوك لأنهم يمثلون المرجعية الرئيسة لهم، وهم ورثة الأنبياء، ومعلمو الهداية والرشاد.

صلة العلم بالعمل:

من المعلوم أن الإسلام منهاجٌ متكاملٌ للحياة، ومن معطيات هذا المنهج وجوب طلب العلم، الذى يعد الترجمان العملي للرقي الفكري، والتهذيب الخلقي، والازدهار الحضاري.

---

[١٤١] أحمد قبش: مجمع الحكم والأمثال، ص٣٤٣.

[١٤٢] ابن قتيبة: عيون الأخبار، ١٢١/٢.

[١٤٣] ابن قتيبة: عيون الأخبار، ١٢١/٢.

www.mtenback.com

وهذا العلم لا يؤتي ثماره الحقة إلا بالعمل به، وتفعيل خبراته، وما تحقق منه من معارف وخبرات، ونتائج أبحاث في ميدان الحياة؛ فنحن نتعلم حين نعمل. يقول محمد الغزالي: والعلم الذى ينشأ عن العمل هو الملكة التى يستنير بها المرء في دروب الحياة المتشابهة، والعمل يحيي القلوب بالمعرفة اليقظة النافعة.. وقد جاء عن أحد التابعين أنهم كانوا يحفظون أحاديث رسول الله ﷺ بالعمل بها[١٤٤]. وعلى هذا يعد العلم والعمل القطبين اللذين عليهما محصلة العلوم والانتفاع بها، ومن هنا قيل: «العلم يهتف بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل»[١٤٥]. وقد وضع الرسول الكريم ﷺ التأصيل الشرعي للعلاقة الوثيقة بين العلم والعمل منها قوله: «عمل قليل في علم خير من كثير منه في جهل»[١٤٦] كما نبّه إلى أن العلم الذي لا يوضع موضع التنفيذ يؤدي إلى عدم جدواه، وينبغي الاستعاذة منه، قال:«اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع...»[١٤٧].

كما أن الإفادة من معطيات العلم في ميدان الحياة العامة تعد وسيلة فعالة لاجتياز المخاطر، وإدراك الغايات، قيل للمهلب: «بِم أدركت ما أدركت؟ قال: بالعلم، قيل له: فإن غيرك قد علم أكثر مما علمت، و لم يدرك ما أدركت! قال: ذلك علم حُمل، وهذا علم استُعمل»[١٤٨] وعلى هذا فإن العلم إذا لم يستثمر بالعمل يؤدي إلى نقلة ارتدادية تبدد مكاسب العلم، يقول الشاعر[١٤٩]:

وَالْعِلْمُ لَيْسَ بِنَافِعٍ أَرْبَابَهُ ... مَالَمْ يُفِدْ عَمَلاً وَحُسْنَ تَبَصُّرِ

---

(١٤٤) محمد الغزالي: جدد حياتك، مكتبة الخانجي، القاهرة، (١٩٥٦م) انظر: ص٦٢.

(١٤٥) الأصفهاني: محاضرات الأدباء ص١٤.

(١٤٦) المرجع السابق، ص١٤.

(١٤٧) المرجع السابق، ص١٤.

(١٤٨) ابن عبد ربه: العقد الفريد،٢/٢٠٧.

(١٤٩) أحمد قبش: مجمع الحكم والأمثال، ص٣٤٤

www.mtenback.com

ومن مظاهر ارتباط العلم بالعمل المثابرة عليه ومدارسته، وتعليمه ونشره؛ فالمعرفة الإنسانية تراكمية، يأخذ فيها الخلف عن السلف، واللاحق عن السابق، يقول الشاعر[١٥٠]:

أَفِدِ الْعِلْمَ وَلاَ تَبْخَلْ بِهِ ... وَإِلَى عِلْمِكَ عِلْمًا فَاسْتَفِدْ

اسْتَفِدْ مَا اسْطَعْتَ مِنْ عِلْمٍ وَكُنْ ... عَامِلاً بِالْعِلْمِ وَالنَّاسَ أَفِدْ

ومن صور ارتباط العلم بالعمل عدم الانشغال بسواه عنه، وقد أدرك علماؤنا الأفذاذ هذه العلاقة فكانت معينًا لهم على الابتكار والإبداع، يقول الخليل بن أحمد: «العلم لايعطيك بعضه حتى تعطيه كلك»[١٥١]. وعليه فمن لم يبذل أقصى الجهد للعلم لايدرك العلم، قالوا: «لا يدرك العلم من لا يطيل درسه، ولا يكدّ نفسه»[١٥٢]. ومما تأثر به الأسلاف من أقوال القدماء قول الفيلسوف أرسطاطاليس: «طالب العلم كالغائص في البحر لا يصل إلى الجواهر الكريمة إلاّ بالمخاطرة العظيمة»[١٥٣].

ويعزز مالك بن دينار هذه العلاقة الوثيقة بين العلم والعمل جاعلاً منهما نسيجًا واحدًا متآلفًا، بحيث إذا غُيِّب أحدهما فقد الآخر مصداقيته، قائلاً: «إن العالم إذا لم يعمل بعلمه زلّت موعظته عن القلوب، كما يزل القطر عن الصفا»[١٥٤].

صلة العلم بالأدب:

على مدى أفق تاريخي ممتد شكل العلم والأدب ثنائية مزدوجة، وهذه العلاقة الوطيدة بين العلم والأدب لم تنشأ من فراغ، إذ انطلقت من خصوصية البنية التكوينية

---

[١٥٠] عبد الله بن حميس: الشوارد، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، (١٩٧٤م)، ١٤٧/١.

[١٥١] الراغب الأصفهاني: محاضرات الأدباء، ص٢٢.

[١٥٢] المرجع السابق نفسه.

[١٥٣] المرجع السابق نفسه.

[١٥٤] ابن قتيبة: عيون الاخبار، ١٢٥/٢. الصفا: الحجر الصلد.

www.mtenback.com

لهما، فالعلم هو نتاج إعمال العقل، وثراء الفكر والأدب نتاج العاطفة الصادقة، والمشاعر الرقيقة، وهما معًا من العوامل الرئيسة لبناء الشخصية الإنسانية وتكاملها، مع تباين طباعها، واجناسها، وبيئاتها، وثقافتها.

وإلى جانب ذلك فقد كان العلم والأدب من أهم مقومات الحضارة الإسلامية التي لعبت دورًا جسيمًا في تاريخ التقدم الإنساني[١٥٥].

وقد زخرت كتب التراث برصْد هذه القيمة التأسيسية لبناء الشخصية المتميزة المسلحة بالعلم ومكارم الأخلاق، ودورها الوظيفي في قيادة الأمم، وتكوين الرجال. من ذلك ما جاء عن الأحنف: «من لم يكن له علم ولا أدب لم يكن له حسب ولا نسب»[١٥٦]، وقول بعض الحكماء: «العقل يحتاج إلى مادة من الأدب كما تحتاج الأبدان إلى قوتها من الطعام»[١٥٧]. وقد أفرد ابن عبد ربه إحدى جواهر عقده الفريد للعلم والأدب ووسمهما بعنوان«كتاب الياقوتة في العلم والأدب» ومهّد لهما بمقدمة تفصح عن مدى ارتباط العلم بالأدب وأثرهما في تكوين الشخصية الإنسانية، فهما «القطبان اللذان عليهما مدار الدين والدنيا، وهما مادة العقل، وسراج البدن، ونور القلب، وعماد الروح، وقد جعل الله بعض الأشياء عمدًا لبعض، ومتولّدًا من بعض، وإن العاقل إذا لم يُعلَّم شيئًا كان كمن لاعقل له، والطفل الصغير لو لم تعرِّفه أدبًا وتلقنه كتابًا كان كأبله البهائم وأضلّ الدواب»[١٥٨].

ولابن المقفع رؤية متميزة لصلة العلم بالأدب، فهو يتجاوز الرؤى التقليدية إلى الرؤية الفلسفية المؤيدة بالحجة والمنطق، مبينًا فاعلية أحدهما بالآخر، ومدى أثر هذه الفاعلية على تكوين الشخصية الإنسانية يقول: «وللعقول سجيات وغرائز، بها تقبل

---

[١٥٥] د. مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا، ص٧٢

[١٥٦] الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، انظر ص١٢

[١٥٧] الأبشيهي: المستطرف، ص٢٣

[١٥٨] ابن عبد ربه: العقد الفريد، ٢٠٦/٢

www.mtenback.com

الأدب وبالأدب تنمو العقول وتزكو»[١٥٩] فالأدب ينمي العقول، والعلم نتاج العقل والشخصية الإنسانية قوامها العلم والأدب، فالعلم هو بمثابة التربة للنفس الإنسانية، والأدب هو الماء الذى يرويها، ويساعدها على النضرة والنماء. ويقول: «فكما أن الحبة المدفونة في الأرض لا تقدر أن تخلع يبسها وتظهر قوتها وتطلع فوق الأرض بزهرتها إلا بمعونة الماء الذى يغور إليها في مستودعها، فيذهب عنها أذى اليبس والموت، ويحدث لها بإذن الله القوة والحياة؛ فكذلك سليقة العقل مكنونة في مغرزها من القلب لا قوة لها ولا حياة بها، حتى يعتملها الأدب الذى هو ثمارها وحياتها ولقاحها»[١٦٠].

من وسائل اكتساب العلم وحفظه:

خلّف لنا العلماء ثروة زاخرة من العلوم النقلية والعقلية ما نزال إلى اليوم نترسم خطاها، ونحلّها من البحث والدراسة مكان الصدارة.

وهذه الثروة العلمية كانت لها وسائلها ومقوماتها سواء كانت مقومات ذاتية، أو وسائل وأدوات، وطرق مكتسبة.

وتتمثل أولى هذه المقومات الذاتية في طبيعة خلق الإنسان، فالله خلق في الإنسان نزوعه وميله إلى المعرفة والاطلاع، وهيأ له سبل التلقي والتحصيل.

ومع أن هذه المقومات الذاتية تتفاوت تبعًا للفروق الفردية بين البشر إلا أن هذا التفاوت لا يلغي أصل وجود هذه النزعة الفطرية، وقد جاء الخطاب القرآني مشيرًا إلى هذا الترابط بين خلق الإنسان واستعداده الذاتي للمعرفة والتحصيل والتلقي، في قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ. عَلَّمَ الْقُرْآنَ. خَلَقَ الإِنْسَانَ. عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾[١٦١].

---

[١٥٩] عبد الله بن المقفع: الأدب الصغير والأدب الكبير، انظر ص٤٣

[١٦٠] عبد الله بن المقفع: الأدب الصغير والأدب الكبير، ص٤٣

[١٦١] سورة الرحمن: ١-٤.

www.mtenback.com

وهذه المقومات الذاتية أشبه بسلسلة متصلة الحلقات، كل حلقة تفضي إلى الأخرى، ويأتي في صدارتها: الرغبة في طلب العلم، قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إن الرجل لا يولد عالمًا، وإنما العلم بالتعلم»[١٦٢]. وهذا التعلم لا بدّ أن يسانده التوفيق الإلهي الذي لا يكون إلا بإخلاص النية لله سبحانه وتعالى في طلبه وبذله، وهما معًا يحققان في النفس الإنسانية متعةً وسعادة لا حدود لهما.

وهذه السعادة الغامرة في طلب العلم تستدعي الإقبال عليه، والاستكثار منه، والمثابرة على تحصيله، وتحمل المشاق، والصبر على عناء مذاكرته، واستقصاء أبحاثه وقضاياه. ومن ثمّ لا يُجدي هذا العلم الجم، و العناء المبذول دون أن يتم العمل به، والانتفاع منه، لا سيما بتأهيل الكفاءات البشرية، وهذا التأهيل لن يتم إلا بتعليم العلم ونشره، وتوسيع دائرته كقيمة مؤسسة للرقي الخلقي، والتقدم الحضاري.

ومن المقومات الذاتية لاكتساب العلم: التقوى، ولأهمية التقوى في تحصيل العلم أن الله سبحانه وتعالى جعلها الركيزة الرئيسة لمنح العلم النافع الذي به سعادة الدارين، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[١٦٣] وهذه التقوى وضعها السلف الصالح موضع الصدارة، شرطًا لا ستيعاب العلم والانتفاع به، قال الإمام الشافعي[١٦٤]:

شَكَوْتُ إِلَى وَكِيعٍ سُوءَ حِفْظِي ... فَأَرْشَدَنِي إِلَى تَرْكِ الْمَعَاصِي

وَأَخْبَرَنِي بِأَنَّ الْعِلْمَ نُورٌ ... وَنُورُ اللهِ لاَ يُهْدَى لِعَاصِي

---

[١٦٢] ابن عبد ربه: العقد الفريد، ٢/٢١١

[١٦٣] سورة البقرة: ٢٨٢.

[١٦٤] الشافعي: ديوان الشافعي، جمع وتعليق محمد عفيف الزعبي، دار العلوم للطباعة والنشر، جده، ط٣، (١٩٧٤م)، ص٥٤.

www.mtenback.com

وإلى جانب ذلك فإن صغر السن يعد من المقومات الرئيسة لاكتساب العلم، حيث يكون ذهن المتلقي كالصفحة البيضاء الصافية ينطبع فيها كل ما يرد عليها، وقد حفظت لنا ذاكرة الأيام خبرات الأوائل في هذا المجال، فقالوا: «العلم في الصغر كالنقش في الحجر».

ويرى الإمام الماوردي مقومات أخرى لتحصيل العلم سماها شروطًا قال فيها: «وأما الشروط التى يتوفر بها علم الطالب، وينتهي معها كمال الراغب، مع ما يُلاحظ به من التوفيق، ويمدّ به من المعونة، فتسعة شروط:

الأول: العقل الذى يدرك به حقائق الأمور. والثاني: الفطنة التى يتصور بها غوامض العلوم. والثالث: الذكاء الذى يستقر به حفظ ما تصوره وفهم ما علمه. والرابع: الشهوة التي يدوم بها الطلب، ولا يسرع إليها الملل. والخامس: الاكتفاء بمادة تغنيه عن كُلف الطّلب. والسادس: الفراغ الذى يكون معه التوفر، ويحصل به الاستكثار. والسابع: عدم القواطع المذهلة من هموم وأشغال، وأمراض. والثامن: طول العمر، واتساع المدة لينتهي بالاستكثار إلى مراتب الكمال. والتاسع: الظفر بعالم سمح بعلمه، متأنّ في تعليمه. فإذا استكمل هذه الشروط التسعة فهو أسعد طالب وأنجح متعلم»[١٦٥].

وللإمام الشافعي تجربته العلمية الخصبة التى يسديها لطالبي العلم، لتحقيق طموحاتهم العلمية، وهي تجربة تلتقي في بعض جوانبها مع الشروط التي ذكرها الإمام الماوردي، مما يكشف عن فعاليتها في الواقع العملي يقول[١٦٦]:

أَخِي لَنْ تَنَالَ الْعِلْمَ إِلاَّ بستةٍ ... سَأُنْبِيْكَ عَنْ تَفْصِيلِهَا بِبَيَانِ

ذَكَاءٌ وَحِرْصٌ وَاجْتِهَادٌ وَبُلْغَةٌ ... وَصُحْبَةُ أُسْتَاذٍ وَطُولُ زَمَانِ

---

[١٦٥] الماوردي: أدب الدنيا والدين، ص٧٤-٧٥

[١٦٦] الشافعي:الديوان، ص٨١

www.mtenback.com

المقومات والوسائل المكتسبة لتحصيل العلم:

السؤال أهم دافع ووسيلة لتحصيل العلم، وقد ورد في الحديث: «العلم خزائن، ومفتاحه السؤال، فاسألوا رحمكم الله، فإنما يؤجر في العلم ثلاثة: القائل، والمستمع، والآخذ»[١٦٧].

كما ورد عن النبي ما يبين السؤال الذي يسعف بنيل نصف العلم: «حسن السؤال نصف العلم»[١٦٨].

فباب العلم الأول هو السؤال، الذي يعبّر في الحقيقة عن انشغال القلب وطلبه للمعرفة، فهذا مفتاح العلم وبابه ووسيلة السؤال اللسان! ولذا قال ابن عباس عندما سئل: «بم نلت هذا العلم؟! قال: بلسان سؤول وقلب عقول»[١٦٩].

والسؤال الواعي الراشد يشيد به المبرّد، ويعدّه وسيلة فعالة لقطف ثمار العلم النافع، متمثلاً بشعر أبي سليمان الغنوي[١٧٠]:

فَسَلِ الْفَقِيهَ تَكُنْ فَقِيهًا مِثْلَهُ ... لاَ خَيْرَ فِي عِلْمٍ بِغَيْرِ تَدَبُّرِ

وَإِذَا تَعَسَّرتِ الأُمُورُ فَأَرْجِهَا ... وَعَلَيْكَ بِالأَمْرِ الَّذِي لَمْ يَعْسُرِ

ومن الوسائل الأخرى لاكتساب العلم: التدرج في طلب العلم، وقد وضّح الماوردي الغاية التي تُجنى من هذه الوسيلة قائلاً: «واعلم أن للعلوم أوائل تؤدي إلى أواخرها، ومداخل تفضي إلى حقائقها، فليبتدئ طالب العلم بأوائلها، لينتهي إلى أواخرها، وبمداخلها ليفضي إلى حقائقها، ولا يطلب الآخر قبل الأول، ولا الحقيقة قبل

---

[١٦٧] الماوردي: أدب الدنيا والدين، ص٧٨.

[١٦٨] المرجع السابق، ص/٧٩.

[١٦٩] المرجع السابق نفسه.

[١٧٠] المرجع السابق نفسه.

www.mtenback.com

المدخل، فلا يدرك الآخر، ولا يعرف الحقيقة، لأن البناء على غير أُسّ لا يُبنى، والثمر من غير غرس لا يُجنى»[١٧١].

ومن الوسائل الهامة المكتسبة لتحصيل العلم: الارتحال في طلبه وتحصيله. لقد كانت الرحلات العلمية عبر تاريخنا العلمي والأدبي معلمًا بارزًا كان السبب في تلك الثروة النفيسة في شتى العلوم والفنون؛ تلك الرحلات التى تجشم في سبيلها العلماء الكثير من الصعاب والمشاق، متنقلين من بلد إلى بلد، ومن قطر إلى قطر، مما جعلهم يصفون مشاق الارتحال بأنها: «قطعة من العذاب»[١٧٢] إلا أن هذا العناء يتضاءل بل يتبدد إزاء تذكرهم لما ادخره الله من جزيل الثواب لهذا الارتحال العلمي، كما ورد في الحديث: «من سلك طريقًا يلتمس به علمًا سهّل الله له به طريقًا إلى الجنة»[١٧٣] وقوله: «ما من خارج خرج من بيته في طلب العلم إلاّ وضعت له الملائكة أجنحتها رضًا بما يصنع»[١٧٤].

ولم تكن هذه المشاق في الارتحال تبذل بالضرورة لتحصيل علوم بتمامها، بل كانت تتم لنيل معلومة واحدة، أو لتحقيقها، والوقوف على صحتها، ومن ذلك قول أبي الدرداء رضي الله عنه:«لو أعيتنى آية من كتاب الله فلم أجد أحدًا يفتحها عليّ إلا رجل ببرك الغماد[١٧٥] لرحلت إليه»[١٧٦].

---

[١٧١] الماوردي: أدب الدنيا والدين، ص٥٥

[١٧٢] أحمد أمين: ضحى الإسلام، ٢/٦٩

[١٧٣] المنذري: الترغيب والترهيب، ١/١٠٤

[١٧٤] المنذري: الترغيب والترهيب، ١/١٠٤

[١٧٥] موضع بأقصى اليمن، كان يضرب إذ ذاك مثلاً في البعد وصعوبة الوصول إليه، ضحى الإسلام، ٢/٧٠.

[١٧٦] أحمد أمين: ضحى الإسلام،٢/٦٩-٧٠.

www.mtenback.com

ويقول صاحب ضحى الإسلام بأن المحدّثين كانوا أنشط الناس للرحيل العلمي وأصبرهم عليه، نظرًا لتوزع الصحابة في الأمصار أثناء الفتوح، وكانوا يحملون الحديث عن رسول الله ﷺ، فكان في كل قطر طائفة من الحديث لا تعرفه الطائفة الأخرى، فاجتهد العلماء في الارتحال لأخذ الحديث عن بعضهم البعض وكان الباعث الديني، والمثوبة العظيمة تذلل كل الصعاب والعقبات[١٧٧].

ولعل من المفيد إيراد صورة من صور هذا الارتحال مجسدة برحلة:«يحيى الليثي البربري الأصل، الأندلسي النشأة، رحل إلى المشرق وهو ابن ثمان وعشرين سنة، فسمع من مالك بن أنس الموطّأ في المدينة، ورحل إلى مكة فسمع من سفيان بن عيينة، ورحل إلى مصر فسمع من الليث بن سعد، وعبد الله بن وهب، وعبد الرحمن بن القاسم»[١٧٨].

ويشيد ابن خلدون بأهمية الرحلة في طلب العلم، ويرى أن لقاء العلماء يحقق لطالب العلم مزيدًا من كمال التعليم «فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها، فلقاء أهل العلوم، وتعدد المشايخ يفيده تمييز الاصطلاحات بما يراه من اختلاف طرقهم فيها فيُجرد العلم عنها ويعلم عنها ويعلم أنها أنحاء تعليم، وطرق توصل وتُنهض قُواه إلى الرسُوخ والاستحكام، فالرحلة لا بدّ منها في طلب العلم، لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ، ومباشرة الرجال»[١٧٩].

ومع تلمس وسائل اكتساب العلم نقف على وسيلة أخرى هي: الحفظ؛ وهو يعين على استيعاب العلم بكثرة الدرس، ومن ذلك جاء في مأثور قولهم:«لن يدرك العلم من لا يطيل درسه، ويكدّ نفسه»[١٨٠]. والحفظ ينبغي أن يلازمه الاعتقاد بأن

---

[١٧٧] انظر أحمد أمين: ضحى الإسلام، ٢/٧٠

[١٧٨] أحمد أمين:ضحى الإسلام، ٢/٧١.

[١٧٩] ابن خلدون المقدمة، ص٥٤١.

[١٨٠] الماوردي: أدب الدنيا والدين، ص٦٥.

www.mtenback.com

العلم مغنم والجهالة مغرم، حتى يتضاءل تعب الدرس، إزاء مغنم العلم. ثمّ إن نيل الأمر العظيم يكون بجهد عظيم. ولذلك قال بعض الحكماء: «أكمل الراحة ما كانت عن كدّ التعب، وأعزّ العلم ما كان عن ذل الطلب»[١٨١].

وينبه العلماء طلاب العلم إلى أن الحفظ لا يحقق جدواه إلاّ إذا رافقه التصور مع الفهم والروّية، وجاء عن ابن مسعود قوله: «كونوا للعلم رُعاة، ولا تكونوا له رُواة...»[١٨٢].

ويرى العلماء أن الاعتماد على الحفظ وتصوره في الذهن، دون تقييده بالكتابة ثقةً بما استقر في الذهن منه يعدّ خطأً جسيمًا، نظرًا لما فطر عليه الإنسان من طبع النسيان، وعند ما حثّ الخطاب القرآني على العلم وجّه إلى الوسيلة التى يُحفظ بها العلم، وهي: الكتابة، وأداتها القلم.

ولأهمية الكتابة كان تعلمها من العلوم الواجبة[١٨٣]، حيث شكلت الكتابة من منظور ثقافي مرحلة فكرية باتجاه الازدهار العلمي، والتقدم الحضاري للأمة العربية والإسلامية التي كان من مظاهرها: حركة التدوين، والترجمة، والمصنفات العلمية بشتى الميادين، سواءٌ في ميادين: العقيدة، وعلم الرجال، والفقه والتاريخ، والفلسفة، والحكم، والأدب، والفن، وسوى ذلك مما خلّف آثارًا بعيدة المدى قوية التأثير فيما وصلت إليه الحضارة الحديثة[١٨٤].

وقد امتدت العناية بالكتابة إلى العناية بالكتاب نفسه، لكونه الصورة المجسدة لها، إذ هو النواة الأولى للمعرفة الإنسانية، على مدار الحقب الزمنية. ومن هنا أشاد

---

[١٨١] الماوردي: أدب الدنيا والدين، ص٦٥.

[١٨٢] الماوردي: أدب الدنيا والدين، ص٦٥.

[١٨٣] انظر أهمية الكتابة، ص٦، ٤٢ فيما سبق من هذا البحث.

[١٨٤] د. مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا، ص٧٢.

www.mtenback.com

كثير من العلماء والأدباء، والشعراء بمكانة الكتاب وتعدد مزاياه، ولعل من أهم من وصف مزايا الكتاب: الجاحظ، من ذلك قوله فيه: «الكتاب وعاء مليء علمًا، وظرف حشي ظرفًا، وإناء شحن مزاحًا وجدًّا، وإن شئت كان أعيا من باقل، وإن شئت كان أبلغ من سحبان وائل، وإن شئت ضحكت من نوادره، وإن شئت عجبت من غرائبه، وإن شئت ألهتك مضاحكه، وإن شئت أشجتك مواعظه...»[١٨٥].

ويقول الحسن بن طباطبا العلوى مشيدًا بمكانة الكتاب الفكرية والنفسية: «الكتب حصون العقلاء، إليها يلجؤون، وبساتينهم بها يتنزهون» ثم ينشد[١٨٦]:

وَكِتَابُ عِلْمٍ لِلأَدِيْبِ مُؤَانِسٌ ... وَمُؤَدِّبٌ وَمُبَشِّرٌ وَنَذِيْرُ

وَمُفِيدُ آدابٍ وَمُؤْنِسُ وَحْشَةٍ ... وَإِذَا انْفَرَدْتَ فَصَاحِبٌ وَسَمِيرُ

وإلى جانب ذلك، فالكتاب يعد صورة صادقة لعقل مؤلفه يقول إسماعيل الثقفي: «عقول الرجال في أطراف أقلامها»[١٨٧].

وهذه المكانة المرموقة للكتاب جعلته أثيرًا على أصحابه، يعز عليهم ابتعاده أو فقده، من ذلك قول الحمدوني[١٨٨]:

مَا بَالُ كُتْبِي فِي يَدَيْكَ رَهِينَةٌ ... حُبِسَتْ عَلَى كَرِّ الزَّمَانِ الأَطْوَلِ

ائْذَنْ لَهَا فِي الانْصِرَافِ فَإِنَّهَا ... كَنْزٌ عَلَيْهِ فِي الزَّمَانِ مُعَوِّلِي

فَلَقَدْ تَعَنَّتَ حِينَ طَالَ ثَوَاؤُهَا ... طَالَ الثَوَاءُ عَلَى رَسُولِ الْمَنْزِلِ

---

[١٨٥] الجاحظ: الحيوان، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، (١٩٩٦م) ١/٣٨.

[١٨٦] عبد الملك الثعالبي: اللطائف والظرائف، دار المناهل، بيروت، (١٩٩٢م) ص٦٦-٦٧.

[١٨٧] الزمخشري: ربيع الأبرار، ٣/٢٤٩.

[١٨٨] الزمخشري: ربيع الأبرار،٣/٢٣٦.

www.mtenback.com

وهكذا يبقى الكتاب الكنز الثمين، والمحصّلة المعرفية الأولى، على الرغم من وفرة المصادر العلمية التي استجدت على الساحة الثقافية، فهو الجذر الأصيل للمعرفة، ولن تستغني الفروع عن الجذور!

ومن طرق اكتساب العلم: مذاكرته، وقد مّثلت حلقات العلم طرحًا جديدًا في ميدان التلقي العلمي على المستوى الجمعي، إذ شكلت منظومة معرفية استقطبت آراءً عدة، متقدة ذهنيًا، عميقة فكريًا، ثرية علميًا، وكلها صبّتْ في بوتقة الفكر والحضارة العربية الإسلامية.

وقد اتسعت ميادينها على الصعيد الموضوعي والإقليمي، والمكاني، فمن ناحية الموضوع تناولت حلقات مدارسة العلم حقولاً معرفية عدة، كالتفسير والحديث والفقه، واللغة، والنحو، وعلم الكلام، والفلسفة، وسوى ذلك.. كما انتشرت في سائر الأقاليم الإسلامية، كالحجاز، والشام، ومصر، وخراسان، وسواها[189].

إلى جانب تعدد أماكنها التى لم تقتصر على المساجد فحسب، بل في الدور، والقصور، وبين العلماء، وفى حضرة الخلفاء[190].

وقد شغف علماء السلف بهذه المذاكرات شغفًا يوازي شغفهم بالعلم نفسه فمنهم من فضّلها على العبادة، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «تذاكر العلم بعض ليلة أحب إليّ من إحيائها»[191] ووجدوا فيها قيمة رفيعة وتربية فكرية. قال بعضهم: «من أكثر مذاكرة العلماء لم ينس ما علم، واستفاد ما لم يعلم»[192].

---

[189] د. شوقي ضيف: العصر الإسلامي، ص٢٠٠-٢٠١.

[190] أحمد أمين: ضحى الإسلام، ٢/٥٤.

[191] المهذب من إحياء علوم الدين، ص٤٣.

[192] الحصري: زهر الآداب، ص٤٢٩

www.mtenback.com

موانع تحصيل العلم:

يعد العلم ذروة سنام الفضائل الدينية والمعايير الاجتماعية، ومع ذلك فهناك مقومات تحول دون الإقبال عليه، وتحصيله، ومنها: كبر السن؛ فقد يتوانى بعض من تقدم به العمر عن طلب العلم لفتور الهمة، إذ تتضاءل لديه المزايا التي يجنيها بحيث لا يتوازى الجهد والكد مع ما يرجوه من ثمار العلم. أو أن يخجل من عدم التعلم في الصغر فيحجم عن التعلم في الكبر، ويرضى أن يوسم بالجهل من أن يبتدئ بالعلم[١٩٣].

ويرى الماوردي أن هذا الرأي يعدّ من خُدع الجهل، لأن العلم فضيلة، ورغبة الكبار فيه أولى من الصغار، ولأن يكون شيخًا متعلمًا أفضل من أن يكون شيخًا جاهلاً. وعزز رأيه بحادثة تؤكد فضل العلم مع تقدم العمر قائلاً: «وذُكر أن إبراهيم ابن المهدي دخل على المأمون، وعنده جماعة يتكلمون في الفقه، فقال: ياعمّ، ما عندك فيما يقول هؤلاء؟ فقال: يا أمير المؤمنين، شغلونا في الصغر، واشتغلنا في الكبر. فقال: لم لا تتعلمه اليوم؟ قال: أويحسن بمثلي طلب العلم؟ قال: نعم، والله لأن تموت طالبًا للعلم خيرٌ من أن تعيش قانعًا بالجهل! قال: وإلى متى يحسن بي طلب العلم؟ قال: ما حسنت بك الحياة»[١٩٤]. ولقد سئل حكيم: وما حدّ التعليم؟ فقال: حد الحياة»[١٩٥].

وقد يُمتنع عن طلب العلم لقلة الحظ من الفطنة، وهذا المانع كما يقول الماوردي أعذر من سواه، إلاّ أنه لا يعدّ سببًا يحول دون التعليم، لأن إدراك اليسير خير من ترك الجميع، معلّلاً بأن الماء مع لينه يؤثر في الصخور! فكيف لا يؤثر العلم الزكي في نفس راغب شهي؟! لا سيما أن طالب العلم قد ضمن له العون والمساعدة والرعاية. من ذلك ماجاء عن صفوان بن عسال المرادي رضي الله عنه قال: «أتيت النبي ﷺ

---

[١٩٣] الماوردي: أدب الدنيا والدين، ص٤٨.

[١٩٤] أدب الدنيا والدين، ص٤٩.

[١٩٥] الأصفهاني: محاضرات الأدباء، ص٢٠.

www.mtenback.com

وهو في المسجد متكئ على برد له أحمر، فقلت له: يارسول الله، إني جئت أطلب العلم، فقال: مرحبًا بطالب العلم! إن طالب العلم تحفه الملائكة بأجنحتها، ثم يركب بعضهم بعضًا حتى يبلغوا السماء الدنيا من محبتهم لما يطلب»[١٩٦].

ومن موانع طلب العلم: قلة المال، والانشغال عن العلم باكتسابه. وهذا العذر وإن كان له بعض التبرير إلا أنه لا يحسن أن ينأى بصاحبه عن التحصيل، لأن الراغب في طلب العلم قادر على تخصيص ما يحتاج من الوقت لتعلمه، وما يحتاج لعمله، فينال بذلك الحسنيين. وقد حفظت لنا ذاكرة الأيام، والشواهد المعاصرة نماذج كثيرة ممن نالوا حظًا من التعليم، بل كان منهم من نال الشهادات العليا في فترات دراسة مسائية، حيث خصّصت ساعات النهار للعمل واكتساب المال وساعات المساء لاكتساب العلم وقد رغّب النبي ﷺ باغتنام فترة من الساعات اليومية لهذه الغاية التعليمية قائلاً: «لكل شيء فترة، فمن كانت فترته[١٩٧] إلى العلم فقد نجا»[١٩٨].

وربما كانت موانع تلقي العلم: صعوبته، فيشك المتلقي في قدراته الذهنية على الفهم والاستيعاب، فيصرف وجهته عن التعلم، وهذا الشك بعدم الفهم لا اعتداد به قبل وقوعه، لأن الخوف قبل الاختبار جهل، والخشية منه عجز، وقد جاء رجل إلى أبي هريرة رضي الله عنه قائلاً له: «أريد أن أتعلم العلم، وأخاف أن أضيعه، فقال: كفى بترك العلم إضاعة»[١٩٩].

---

[١٩٦] المنذري: الترغيب والترهيب، ١/٩٥

[١٩٧] الفترة: زمان وسكون.

[١٩٨] الماوردي: أدب الدنيا والدين، ص٤٩

[١٩٩] الماوردي: أدب الدنيا و الدين، ص٥٠

www.mtenback.com

التشجيع على تحصيل بعض العلوم:

على الرغم من عناية الأسلاف بسائر العلوم، وسبر أغوارها، وتدوينها، وبذلها، ونشرها، إلا أنهم قد أولوا عنايتهم لبعض العلوم عن طريق توظيفها، وطرحها من خلال نظرة مستقبلية لبناء كيان الأمة، لا سيما للناشئة وشداة العلم والأدب الذين لم يدركوا أغوار هذه العلوم ومنافعها الجمّة. فإننا نجدهم - بادئ ذي بدء - قد صنفوا محصلة العلوم إلى علمين رئيسين: اختزلوا فيهما تباين الغاية المرجوة من العلوم باختلاف توظيفها، فقالوا: «العلم علمان: علم في القلب فذلك العلم النافع، وعلم في اللسان فذلك حجة الله على ابن آدم»[٢٠٠] ثم وجهوا إلى التخصص في علم معين، والتوسع في الأدب فقالوا: من أراد أن يكون عالمًا فليطلب فنًا واحدًا، ومن أراد أن يكون أديبًا فليتسع في العلوم»[٢٠١] ثم أشادوا بعلم الفقه، فقالوا: «الأنبياء سادة، والفقهاء قادة، ومجالستهم زيادة»[٢٠٢]، كما أشادوا بعلم النحو وأثره الجمالي على الكلام والمتكلم، قال الزهري: «الإعراب حلية الكلام ووشيه ثم قال: ما أحدث الناس مروءة أعجب إليّ من تعلم النحو»[٢٠٣].

وانتقلوا من مجال العلم النظري إلى مجال الخلق والسلوك، ببيان مكانة العلم الذى يجمع بين القيم الرفيعة، والمجد الشخصي، قال الزهري: «لم يركب العزّ من لم يركب الأدب»[٢٠٤].

---

[٢٠٠] ابن قتيبة: عيون الأخبار، ١٢٦/٢

[٢٠١] العقد الفريد، ٢٠٨/٢

[٢٠٢] الراغب الأصفهاني: محاضرات الأدباء، ص١٦

[٢٠٣] الزمخشري: ربيع الأبرار، ٢٥٤/٣، وانظر وصية هشام بن عبد الملك التي سبقت الإشارة إليها.

[٢٠٤] الزمخشري: ربيع الأبرار، ٢٥٤/٣

www.mtenback.com

وإلى جانب اهتمامهم بالعلوم النظرية كان اهتمامهم بالعلوم التطبيقية أساسًا لحياة دينية دنيوية تلبي حاجات العصر، فقالوا: «الحساب ديباج العلم»[٢٠٥] موضحين هذه المكانة لعلم الحساب بالآية الكريمة: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾[٢٠٦] ومن ثمّ وجدوا في علم الحساب ركيزة للعلوم الحضارية، فقالوا: «لو رفع الحساب لبطلت العلوم، ولو رفعت العلوم لم يبطل الحساب»[٢٠٧].

وفضلاً عن ذلك فقد شجعوا على اكتساب العلوم التي تتأصل بها القيم الثابتة، تلك التي تستجيب لروح العصر ومتطلباته، مشكلين منها منظومة معرفية تتمم إحداها الأخرى، فقالوا: علم الدين لمعادكم، وعلم الطب لأبدانكم، وعلم الهندسة لمعاشكم، وعلم النحو لبيانكم[٢٠٨].

كما أخذ العلماء بعين الاعتبار ذكر بعض العلوم التي تلائم بعض الشرائح الاجتماعية التي ترى فيها مزيدًا من الأهمية، فقالوا: «علم الملوك: النسب والخبر والشعر، وعلم السلطان: المغازي والسير، وعلم التجار: الحساب، وعلم الكتّاب: معرفة الخط، وتصريف اللغات»[٢٠٩].

تقدير المعلم ومكانته:

لعل من نافلة القول أن يكون للمعلم مكانته وتقديره، وهو يعدّ الركيزة الرئيسة لتحصيل العلوم، واكتساب منافعها. ومن هنا حظي المعلم على امتداد تاريخ التربية

---

[٢٠٥] الأصفهاني: محاضرات الأدباء، ص١٦

[٢٠٦] سورة يونس: ٥.

[٢٠٧] الأصفهاني: محاضرات الادباء، ص١٦

[٢٠٨] الرجع السابق نفسه.

[٢٠٩] المرجع السابق نفسه.

www.mtenback.com

بمكانة مرموقة، سجلت لنا كتب التراث صوراً مشرقة لها، ومنها: أن المعلم، أو المربي، أو المؤدب كانت تمنح له الصلاحية الكافية مع أبناء الطبقة الحاكمة، لاسيما أبناء الخلفاء والولاة والقادة، إذ كانت عملية التهذيب والتقويم تواكب مهمة التعليم وتؤازرها[٢١٠] ومنها أنّ الخلفاء كانوا يغرسون في نفوس أبنائهم احترام المعلم وتقديره، والقيام بخدمته، ويعتزون بذلك، ويعلنونه على الملأ، فقد روي أن الخليفة هارون الرشيد سأل يومًا في مجلسه: «من أكرم الناس خدمًا؟ قيل: أمير المؤمنين! فقال: لا، بل أكرمهم خدمًا: الكسائي، فقد رأيته يخدمه الأمين والمأمون وليا عهد المسلمين، وليس لي من الخدم مثلهما»[٢١١].

ومن صور تقدير المعلم أنه كان أحد الثلاثة الذين يقام لهم بالمجالس توقيراً لهم: قال ﷺ: «لا يقام لأحد إلاّ لذي علم، أو لذي سن، أو لذي سلطان»[٢١٢] كما جاء عنه ﷺ: «وقّروا من تتعلمون منه، ووقروا من تعلمونه»[٢١٣] وقد ترتقي مكانة المعلم فتمثل أبوة «التربية والدين» من ذلك ما ورثه العرب عن الأمم الأخرى قولهم: «قيل للاسكندر إنك تعظم معلمك أكثر من تعظّيمك لأبيك! فقال: لأن أبي سبب حياتي الفانية، ومؤدبي سبب حياتي الباقية»[٢١٤].

ومع امتداد الزمن امتدت مظاهر تقدير المعلم واحترامه، وسجلها بعض الشعراء، قائلاً[٢١٥]:

---

[٢١٠] انظر: وصية عتبة بن أبي سفيان، وهارون الرشيد لمؤدبي ولديهما، التي سبقت الإشارة إليهما.

[٢١١] الأصفهاني: محاضرات الأدباء، ص٢٣.

[٢١٢] المرجع السابق، ص١٩.

[٢١٣] المرجع السابق، ص١٩.

[٢١٤] المرجع السابق، ص١٩.

[٢١٥] أحمد قبّش: مجمع الحكم والأمثال، ص٣٤٨.

www.mtenback.com

أَلَمْ تَـــرَ أَنَّ الْعِلْـــمَ يُذْكَـــرُ أَهْلُـــهُ ... بِكُلِّ جَمِيْـــلٍ فِيْـــهِ وَالعَظْـــمُ نَـــاخِرُ
سَقَى اللهُ أَجْدَاثًـــا أَجَنَّـــتْ مَعَاشِـــرًا ... لَهُمْ أَبْحُرٌ مِنْ كُـــلِّ عِلْـــمٍ زَوَاخِـــرُ

ومنهم خليل مطران، قائلاً[٢١٦]:

أَمَّا الأُلَـــى دَأَبُـــوا وَذَابُـــوا حِسْـــبَةً ... لإِنَارَةٍ وَهُـــدًى وَكَشْـــفِ ضَـــلاَلِ
وَشَرَوا بِرَاحَتِهِـــمْ هَنَـــاءَ بِلاَدِهِـــمْ ... فَهُـــمُ لَعَمْـــرِي خَـــيْرَةُ الأَبْطَـــالِ
لَهُمُ الْوِلاَيَـــةُ وَالْقُلُـــوبُ عُرُوشُـــهُمْ ... وَلَهُـــمْ مَكَـــانَتُهُمْ مِـــنَ الإِجْـــلاَلِ

ولعل من أبرز من صوروا واجب المعلم ومكانته أمير الشعراء أحمد شـــوقي في قصيدته التي بقيت أنشودةً على فم الزمن لا يخبو وهجها مع تطاول الأيام والزمـــان، ومما جاء فيها[٢١٧]:

قُـــمْ لِلْمُعَلِّـــمِ وَفِّـــهِ التَّبْجِيْـــلاَ ... كَـــادَ الْمُعَلِّـــمُ أَنْ يَكُـــونَ رَسُـــولاَ
أَعَلِمْتَ أَشْرَفَ أَوْ أَجَلَّ مِـــنَ الَّـــذِي ... يَبْنِـــي وَيُنْشِـــئُ أَنْفُسًـــا وَعُقُـــولا
سُـــبْحَانَكَ اللَّهُـــمَّ خَـــيْرَ مُعَلِّـــمٍ ... عَلَّمْـــتَ بِـــالْقَلَمِ الْقُـــرُونَ الأُولَـــى
أَخْرَجْتَ هَذَا الْعَقْلَ مِـــنْ ظُلُمَاتِـــهِ ... وَهَدَيْتَـــهُ النُّـــورَ الْمُبِـــينَ سَـــبِيلا
وَطَبَعْتَـــهُ بِيَـــدِ الْمُعَلِّـــمِ تَـــارَةً ... صَدِئ[٢١٨] الْحَدِيدُ وَتَارَةً مَصْقُـــولا

فليس دور المعلم هيّنًا، بل يوازي مهمة النبوة في الإصلاح والهداية فهو يســـعى لتربية الإنسان فكريًا ووجدانيًا، مرسخًا فيه قيم الخير والحق والجمال. فهو جديـــر إذن بمكانة التبجيل والتعظيم، ومع هذا السجل الحافل لمكانـــة المعلـــم في أدبنـــا القديـــم

---

[٢١٦] أحمد قبش: مجمع الحكم والامثال، ص٣٤٨.

[٢١٧] أحمد شوقي: الديوان، المكتبة التجارية الكبرى، (د.ت) ص١٨٠.

[٢١٨] صدئ الحديد: أي غير مجلو ولا مصقول

www.mtenback.com

والحديث، إلا أن هناك بعض المواقف أساءت ونالت من مكانة المعلم أحيانًا، وهذه المواقف النادرة يمكن إدراجها ضمن معنى: لكل قاعدة استثناء، والاستثناء لا يلغي القاعدة. كما يمكن إدراجها ضمن اختلاف طبائع النفوس البشرية التي ليست في تمثل الخير والوفاء سواء.

ومن هذه الصور التى جحدت مكانة المعلم، أبيات يقول فيها الشاعر[٢١٩]:

أُعَلِّمُهُ الرِّمَايَةَ كُلَّ يَوْمٍ ... فَلَمَّا اسْتَدَّ سَاعِدُهُ رَمَانِي

وَكَمْ عَلَّمْتُهُ نَظْمَ الْقَوَافِي ... فَلَمَّا قَالَ قَافِيَةً هَجَانِي

من حقوق المتعلم على المعلم:

علاقة المعلم بالمتعلم، أو الأستاذ بتلميذه، علاقة حميمة قد تفوق أحيانًا علاقة الوالد بولده، ومن ثمّ فقد اتّخذ المعلم إلى جانب دوره التعليمي دور المؤدب، والأب الروحي، والقدوة الصالحة، فكان محط الإعجاب والإعزاز. ومن هنا اقتضت معطيات هذه الرابطة نوعًا من الحقوق الواجبة للمتعلم على المعلم. وقد رصد علماؤنا الأجلاء ممن عنوا بالنواحي التربوية والتعليمية هذه الحقوق، وبينوا أسبابها وغايتها، ومن هؤلاء العلماء: الإمام الماوردي، حيث صنّفها تحت عنوان: «من آداب العلماء» وذكر منها أولاً بذل العلم لطالبه، قائلاً: «ومن آداب العلماء ألا يبخلوا بتعليم ما يحسنون، ولا يمتنعوا من إفادة ما يعلمون، فإن البخل به لؤم وظلم، والمنع منه حسد وإثم..»[٢٢٠].

ويدّلل على وجوب بذل العلم لطالبه بقولهﷺ: «لا تمنعوا العلم أهله، فإن في ذلك فساد دينكم، والتباس بصائركم»[٢٢١].

---

[٢١٩] أحمد قبش: مجمع الحكم والامثال، ص٣٤٧، نسبت هذه الأبيات لمعن بن اوس، وعقيل بن علفة. انظر: ص٣٤٧

[٢٢٠] الماوردي: أدب الدنيا والدين، ص٨٧.

[٢٢١] الماوردي: أدب الدنيا والدين، ص٨٧

www.mtenback.com

وهذه الغاية لتوصيل العلم مدعاة لسعادة المعلّم وقدرته على الثقة بالتوصيل والتاثير، يقول خالد بن صفوان:«إنى لأفرح بإفادتي المتعلّم أكثر من فرحي باستفادتي من المعلم»[٢٢٢].

ويشير الماوردي إلى أن حرص المعلم على بذل العلم لطالبه يحقق له نفعين عظيمين: «أحدهما ما يرجوه من ثواب الله تعالى، إذ روى ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: «تعلموا وعلّموا، فإن أجر العالم والمتعلم سواء، قيل وما أجرهما؟ قال: «مئة مغفرة، ومئة درجة في الجنة»[٢٢٣] والنفع الثاني: «زيادة العلم، وإتقان الحفظ»[٢٢٤]. وممن أكد على أن بذل العلم مدعاةً لصونه واكتساب المزيد منه، الخليل بن أحمد، إذ قال: «اجعل تعليمك دراسة لعلمك، واجعل مناظرة المتعلم تنبيهًا على ما ليس عندك»[٢٢٥].

والإمام الغزالي بخبرته الواسعة في الميدان العلمي والتربوي يدلي بدلوه في بيان حقوق المتعلم على المعلم، التي تجمع من هذه الواجبات محصلة تجمع بين العلاقة الودية، والتوجيه التربوي، والخبرة العلمية، مخبرًا بأن عملية التعليم مهمة عظيمة، وأمرٌ جسيمٌ، يتوجب على القائم بها المحافظة على آدابها، ووظائفها، محددًا لها سبع وظائف[٢٢٦]:

الأولى: إسباغ شفقته على المتعلمين، وأن يجريهم مجرى بنيه، ولذلك صار حق المعلم أعظم من حق الوالدين.

والثانية: أن يبتغي بعلمه وجه الله تعالى، فلا يطلب أجرًا، ولا يقصد به جزاءً ولا شكرًا.

---

[٢٢٢] الماوردي: أدب الدنيا والدين، ص٨٨

[٢٢٣] المرجع السابق نفسه.

[٢٢٤] المرجع السابق نفسه.

[٢٢٥] المرجع السابق نفسه.

[٢٢٦] انظر: الشامي: المهذب من إحياء علوم الدين، ص٦٧-٦٨.

www.mtenback.com

والثالثة: إسداء النصيحة التعليمية، فلا يدعهم للتصدي لرتبة قبل استحقاقها، أو الانشغال بالعلم الخفي قبل الجلي، مع التوجيه إلى إخلاص النية لله تعالى في طلب العلم، دون ابتغاء الرئاسة، أو المباهاة.

والرابعة: التوجيه الخلقي بطريق التلميح دون التصريح، وبطريق الرحمة لا التوبيخ.

والخامسة: الترغيب في بعض العلوم التي يتلقاها من سواه، فلا يحقّرها في نفسه.

والسادسة: مراعاة قدراته الذهنية في الفهم والإستيعاب، خشية أن عدم مراعاة ذلك يؤدي إلى تنفيره من العلم، لعدم بلوغه عقله.

والسابعة: أن يكون عاملاً بعلمه، فلا يكذب قوله فعله، لأن المعلم محطّ نظر المتعلم، والقدوة التي يحتذيها، فإذا انتفى العمل بالعلم فقد المعلم مصداقيته، وسخر به الناس. قال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾[٢٢٧].

ومن الجدير بالذكر أن هذه الحقوق للمتعلم، أو لنقل الوسائل التربوية المعيارية للتعليم، كان فيها لأسلافنا العلماء دور التأصيل والريادة التي سبقوا بها خبراء التربية المحدثين قرونًا عدة!

من ذكاء المتعلمين:

ومع مواكبة مسيرة الرحلة العلمية والتعليمية في تراثنا العربي تستوقفنا بعض اللمحات الذكية لبعض المتعلمين، من ذلك مادار بين الخليفة معاوية بن أبي سفيان، وابنه يزيد، حيث سأله يومًا:

---

[٢٢٧] سورة البقرة: ٤٤.

www.mtenback.com

- يابني، في أي سورة أنت؟

- في السورة التي تلي: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا . لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا . وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾[٢٢٨].

- يابني إن هذه السورة تليها سورتان، وهي بينهما، ففي أيهما أنت؟

- في السورة التي في أولها: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾[٢٢٩].

وهذا الحوار الذي دار بين الخليفة معاوية وابنه يزيد يطلعنا على مظهر من مكارم الأخلاق في احترام الوالد وتقديره، من خلال اختيار الآيات التي تبشر بحسن المآل في الدنيا والآخرة، كما أنها تكشف عن فطنة المسؤول وذكائه في تحوير الإجابة وفق هذه الغاية، إذ استطاع ببراعة أن يستبعد آيتي الوعيد والنهي اللتين تبدأ بهما السورتان المعنيتان، إذ تبدأ الأولى بآية: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾[٢٣٠] وتبدأ السورة الثانية بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[٢٣١].

ومن صور ذكاء المتعلمين ما كان من موقف المأمون مع ولده، إذ وجده يقرأ في كتاب، فقال له: «يا بني، ما كتابك هذا؟ قال: بعض مايشحذ الفطنة، ويؤنس من

---

[٢٢٨] سورة الفتح: ١-٣.

[٢٢٩] سورة محمد: ٢. انظر ابن ظفر المالكي الصقلي: أنباء نجباء الأبناء، دار الآفاق، بيروت، (د.ت)، ص١٠٤.

[٢٣٠] سورة محمد: ١.

[٢٣١] سورة الحجرات: ١.

www.mtenback.com

الوحشة. فقال: الحمد الله الذي رزقني ذريةً يرى بعين عقله، أكثر مما يرى بعين وجهه»[٢٣٢].

وهذا الحوار يظهر البعد المعرفي لأهمية التعلم، ودوره الوظيفي: الفكري، والوجداني، كما يرسم لنا صورتين للبنوة والأبوة، صورة البنوة الواعية، القادرة على الفهم والاستنباط والتقويم، وصورة الأبوة الناضجة المثقفة المدركة لأبعاد مهمتها التربوية التي تحسن تنشئة أبناء ذوي نظرة متبصّرة لمقتضيات الحياة.

من نوادر المعلمين والمتعلمين:

وقبل أن نلقي عصا التسيار من مسيرة العلم والعلماء يحسن أن نتأمل بعض الطرائف والنوادر التي ألقت بظلالها المرحة على أجواء الدرس الجادة، مخففة من حدتها، ومنها أن «يونس كان يختلف إلى الخليل يتعلم منه العروض، فصعب عليه تعلمه فقال له الخليل يومًا: من أي بحر قول الشاعر:

إِذَا لَمْ تَسْتَطِعْ شَيْئًا فَدَعْهُ وَجَاوِزْهُ إِلَى مَا تَسْتَطِيْعُ

ففطن يونس لما عناه الخليل فترك العروض»[٢٣٣] وقال الخليل يومًا لبليد: «ما أجد لقفل بلادتك مفتاحًا»[٢٣٤] كما روي أن أحد الولاة عهد برجل هرم إلى معلم في كتّاب، ليعلمه شيئًا من القرآن، وكان إذا تعلم شيئًا نسي ما قبله، فأبلغ المعلم الوالي قائلاً له: «ابعث إلي من يتسلم مني ما أحفظه أولاً فأولاً»[٢٣٥]. ومن نوادر المتعلمين ما يكشف عن قدرات ذهنية متقدمة عن مستواها العمري منها ما رواه مؤدب يزيد بن

---

[٢٣٢] الزمخشري: ربيع الأبرار، ٣/٢٣٦.

[٢٣٣] الأصفهاني: محاضرات الأدباء، ص١٩.

[٢٣٤] الأصفهاني: ص٢٠.

[٢٣٥] الأصفهاني: محاضرات الأدباء، ص٢١.

www.mtenback.com

عبد الملك قائلاً ليزيد: «لم لحنت؟ فقال: الجواد يعثر! فقال المؤدب: أي والله، ويضرب حتى يستقيم! فقال يزيد: وربما يرمح سائسه!...»[٢٣٦].

وتتنوع نوادر المتعلمين تبعًا لتنوع المواقف مع المعلمين، من ذلك ماحدث مع المأمون ومؤدبه أبي يحيى قال: «صليت يومًا قاعدًا، فأخطأ المأمون، فقمت لأضربه، فقال: أيها الشيخ، أتطيع الله قاعدًا، وتعصيه قائمًا؟! فكتبت بهذا إلى الرشيد، فأمر لي بخمسة آلاف درهم»[٢٣٧].

ولابن المعتز مع مؤدبه ابن السكّيت نادرة من هذه النوادر، تبين أن الموهبة تنمو مع الإنسان منذ مراحل الطفولة الأولى، من ذلك مارواه ابن السكيت قائلاً: سألت ابن المعتز: «بأي شيء نبدأ اليوم؟ فقال: بالخروج! فقلت: نعم، فعدا من بين يديّ، وعثر على المرمر، فقال:

يَمُوتُ الْفَتَى مِنْ عَثْرَةٍ بِلِسَانِهِ وَلَيْسَ يَمُوتُ الْمَرءُ مِنْ عَثْرَةِ الرِّجْلِ

فقلت للمتوكل: جئتم بي لتأديبه، وهو آدب مني، فأمر لي بعشرة آلاف درهم»[٢٣٨].

وبعد هذه الوقفة المتأنية مع موضوع «الترغيب في طلب العلم» نرجوأن نكون قد حققنا ما نأمله من ربط الأجيال المعاصرة بتراثهم المجيد، حيث تتفتح آفاقهم على ما أصّله الأسلاف من قيم ومعايير شكلت ينبوعًا متدفقًا أطلق عليه«مكارم الاخلاق» ومن ثمّ تفرع من هذا الينبوع روافد عدة شكلت في مجملها القيم الإنسانية الفاضلة. وبطبيعة الحال كان العلم والترغيب فيه أحد أبرز الروافد المشكلة لهذه القيم الإنسانية

---

[٢٣٦] محاضرات الأدباء، ص/٢٤

[٢٣٧] محاضرات الأدباء، ص/٢٤

[٢٣٨] الأصفهاني: محاضرات الأدباء، ص/٢٤

www.mtenback.com

النبيلة، فكان قوام الحضارة الإسلامية الزاهرة. وقد ذُكِرتْ نماذج من الصور الخالدة المضيئة التي حفل بها تاريخنا العلمي والأدبي، هذا التراث الضخم الذى ينبغي إحياؤه بمزيد من الوعي المتجدد، والحرص على صيانته وتفعيله وتطويره وفق معطيات التقنيات العلمية المستحدثة. وهذا التطوير لا يُلغي التراث الزاخر لأن الدعوة إلى إلغاء التراث هي دعوة لإلغاء الذات. فكل من ليس له ماضٍ وتاريخ من القيم والمثل العليا، ومكارم الأخلاق فلن يكون له حاضر حافل وغدٌ مشرق.

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

الفهارس

موقع الدكتور مصطفى بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

فهرس الآيات القرآنية

السورة	الآيـــة	رقمها	الصفحة
البقرة	﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾	٤٤	٧٣
	﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ...﴾	٢٨٢	٥٧
الأنفال	﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ...﴾	٢٢	٤٤
التوبة	﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ...﴾	١٢٢	٤٣
يونس	﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً﴾	٥	٦٨
النحل	﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ...﴾	٧٨	٤٤
الكهف	﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾	٨٢	٤٨
طه	﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾	١١٤	١٠
العنكبوت	﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾	٤٣	٩
فاطر	﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾	٢٨	٩
الزمر	﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ...﴾	٩	٩
محمد	﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾	١	٧٤
	﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا...﴾	٢	٧٤
الفتح	﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا...﴾	١-٣	٧٤
الحجرات	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ...﴾	١	٧٤
	﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾	١٠	٣٧
	﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾	١٣	٣٧
الذاريات	﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾	٥٦	١٠
الرحمن	﴿الرَّحْمَنُ. عَلَّمَ الْقُرْآنَ....﴾	١-٤	٥٦
	﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾	٥	٤٦
القلم	﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾	١-٢	١١
العلق	﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ...﴾	١-٥	١٠

www.mtenback.com

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

فهرس الأحاديث

الحديث	الصفحة
«استعن بيمينك»	١٥
«إذا مات ابن آدم انقطع عمله...»	١٣
«إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً...»	١٣
«تعلموا وعلموا...»	٧٢
«حسن السؤال نصف العلم »	٥٩
«طلب العلم فريضة على كل مسلم»	١٢
«العلم خزائن، ومفتاحه السؤال...»	٥٩
«عمل قليل في علم خيرٌ من كثيرٍ...»	٥٣
«فضل العالم على العابد...»	١٢
«قيِّدوا العلم بالكتاب»	١٤
«كلا المجلسين على خير...»	١٤
«لا تمنعوا العلم أهله...»	٧١
«لا يقام لأحد إلا لذي علم...»	٦٩
«لكل شيء فترة...»	٦٦
«ما من خارج خرج من بيته في طلب العلم...»	٦٠
«مثل ما بعثني الله به...»	١٣
«مرحباً بطالب العلم...»	٦٦
«من أخذ على تعليم القرآن...»	١٧
«من سلك طريقاً يلتمس به علماً...»	٦٠
«من وقَّر عالماً فقد وقّر ربّه»	١٤
«من يرد الله به خيراً...»	٤٣

www.mtenback.com

الحديث	الصفحة
«وإن العلماء هم ورثة الأنبياء...»	١٢
«وقروا من تتعلمون منه...»	٦٩
«يُبعث العالم والعابد...»	١٣

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

فهرس الأشعار

أول البيت	القافية	اسم الشاعر	العدد	الصفحة
		ـ ب ـ		
العلم	صحبا	أبو الأسود الدؤلي	١	٥٠
العلم	المنسوبِ	الخزاعي	١	٥١
يعد	بحسيبِ	ـ	٢	٥٢
		ـ د ـ		
أفد	فاستفد	ـ	٢	٥٤
فقر	بواحدِ	البحتري	١	٤٩
كريم	الصدي	طرفة بن العبد	١	٨
		ـ ر ـ		
العلم	المطرُ	ـ	٢	٣٢
وكتاب	نذيرُ	الحسن بن طباطبا	٢	٦٣
ألم تر	ناخرُ	ـ	٢	٧٠
فسل	تدبرِ	الغنوي	٢	٥٩
وتظعن	جداري	العجير السلولي	٣	١٨
والعلم	تبصرِ	ـ	١	٥٣
فأي	الكبرِ	حفني ناصف	١	٥٠
		ـ ص ـ		
شكوت	المعاصي	الشافعي	٢	٥٧
		ـ ع ـ		
إذا لم	تستطيعُ	الخليل بن أحمد	١	٧٥

www.mtenback.com

أول البيت	القافية	اسم الشاعر	العدد	الصفحة
		ـــ ل ـــ		
قم	رسولا	أحمد شوقي	٥	٧٠
تعلَم	جاهلُ	الشافعي	٢	٣١
يموت	الرجلِ	ابن المعتز	١	٧٦
أما الألى	ضلالِ	خليل مطران	٣	٧٠
ما بال	الأطولِ	الحمدوني	٢	٦٣
		ـــ م ـــ		
رأيت	لئامُ	الشافعي	٣	٥٢
يا أيها	التعليمُ	أبو الأسود الدؤلي	٥	٣٠
إن لم	أنعامُ	خليل مطران	٢	٣١
تعلم	التعلمِ	–	٢	٣١
وما الحرب	المرجمِ	زهير بن أبي سلمى	٣	٨
		ـــ ن ـــ		
إذا لم	حسنا	البستي	٢	٣١
أعلمه	رماني	–	٢	٧١
أخي	ببيانِ	الشافعي	٢	٥٨

www.mtenback.com

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

الأبشيهي، شهاب الدين محمد بن أحمد:

المستطرف من كل فن مستظرف: دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٩٣م.

ابن الأثير، أبو الحسن عز الدين:

الكامل في التاريخ: دار صادر، بيروت، ١٩٦٥م.

الأصفهاني، الراغب أبو القاسم الحسين بن محمد:

محاضرات الأدباء: دار الآثار، بيروت، بدون تاريخ.

الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين:

الأغاني: الطبعة الثالثة، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٦٣م.

أمين، أحمد:

ضحى الإسلام: الطبعة العاشرة، مكتبة النهضة المصرية، بدون تاريخ.

البخاري، الإمام محمد بن إسماعيل:

صحيح البخاري: دار الفكر، بيروت، ١٩٨١م.

بروكلمان، كارل:

تاريخ الأدب العربي: نقله: عبدالحليم النجار، الطبعة الخامسة، دار المعارف بمصر، ١٩٨٣م.

البغدادي، الخطيب، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت:

تقييد العلم: تحقيق: يوسف العش، الطبعة الثالثة، دار إحياء السنة النبوية، ١٩٨٨م.

www.mtenback.com

الثعالبي، أبو منصور عبدالملك بن محمد:

يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر: تحقيق: د. مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣م.

الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر:

- البيان والتبيين: تحقيق: عبدالسلام هارون، الطبعة الخامسة، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٥م.

- الحيوان: تحقيق: عبدالسلام هارون، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٦م.

ابن الجوزي، أبو الفرج عبدالرحمن بن علي:

سيرة عمر بن عبدالعزيز: صححه: محب الدين الخطيب، مطبعة المؤيد، مصر، ١٣١٣هـ.

الحصري، أبو إسحاق علي بن تميم:

زهر الآداب: تحقيق: د. زكي مبارك، الطبعة الرابعة، مكتبة المحتسب، عمان، بدون تاريخ.

الحنبلي، أبو الفلاح عبدالحي بن العماد:

شذرات الذهب في أخبار من ذهب: المكتب التجاري، بيروت، بدون تاريخ.

ابن خلدون، أبو زيد عبدالرحمن بن محمد:

مقدمة ابن خلدون: دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ.

ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد:

وفيات الأعيان: تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.

www.mtenback.com

ابن خميس، عبدالله:

الشوارد: دار اليمامة، الرياض، ١٩٧٤م.

الدينوري، أبو محمد عبدالله بن مسلم:

عيون الأخبار: الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣م.

الزركلي، خير الدين:

الأعلام: الطبعة السابعة، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٦م.

الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر:

ربيع الأبرار: تحقيق: د. سليم النعيمي، وزارة الأوقاف، العراق، ١٩٨٠م.

زيدان، عبدالقادر:

تهذيب تاريخ ابن عساكر: دار المسيرة، بيروت، بدون تاريخ.

السباعي، د. مصطفى:

من روائع حضارتنا: دار القرآن الكريم، بيروت، ١٩٨٠م.

ابن أبي سلمى، زهير:

الديوان: دار صادر، بيروت، ١٩٦٤م.

الشافعي، الإمام محمد بن إدريس:

الديوان: جمع وتعليق: عفيف الزعبي، الطبعة الثالثة، دار العلوم، جدة، ١٩٧٤م.

الشامي، صالح أحمد:

المهذب من إحياء علوم الدين: دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ١٩٩٣م.

www.mtenback.com

شوقي، أحمد:

الديوان: المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، بدون تاريخ.

ضيف، د. شوقي:

- العصر الإسلامي: الطبعة السادسة، دار المعارف بمصر، ١٩٧٦م.

- العصر العباسي الأول: الطبعة السادسة، دار المعارف بمصر، ١٩٧٦م.

ابن عبد ربه الأندلسي، أبو عمر أحمد بن محمد:

العقد الفريد: تحقيق: أحمد أمين وآخرين، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٣م.

ابن العبد، طرفة:

الديوان: دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.

عثمان، عبدالكريم:

معالم الثقافة الإسلامية: مؤسسة الرسالة، بيروت، بدون تاريخ.

الغزالي، محمد:

جدد حياتك: مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٥٦م.

الفاروقي، محمد علي التهانوي:

كشاف اصطلاحات الفنون: تحقيق: د. لطفي عبدالبديع، د. عبدالنعيم محمد حسنين، راجعه: أمين الخولي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، ١٩٦٣م.

فروخ، د. عمر:

عبقرية العرب في العلم والفلسفة: الطبعة الثالثة، بيروت، ١٩٦٩م.

قبش، أحمد:

مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي: دار العروبة، دمشق، ١٩٧٩م.

www.mtenback.com

القط، د. عبدالقادر:

في الشعر الإسلامي والأموي: دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٩م.

ابن كثير، أبو الفدا عماد الدين إسماعيل:

البداية والنهاية: الطبعة الثانية، مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٩٠م.

الماوردي، أبو الحسن علي بن حبيب:

أدب الدنيا والدين: تحقيق: مصطفى السقا، الطبعة الثالثة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٥٥م.

محمود، علي عبدالحليم:

تربية الناشئ المسلم: الطبعة الرابعة، دار الوفاء، المنصورة، ١٩٩٢م.

مرعشلي، نديم وأسامة:

الصحاح في اللغة والعلوم: دار الحضارة العربية، بيروت، ١٩٧٤م.

المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين:

مروج الذهب: تحقيق: د. مفيد محمد قميحة، دار الكتب العربية، بيروت، ١٩٨٦م.

مطاوع، إبراهيم عصمت:

أصول التربية: الطبعة الثانية، دار المعارف، ١٩٨٠م.

ابن المقفع، أبو محمد عبدالله:

- الأدب الصغير والأدب الكبير: شرح د. مفيد محمد قميحة، دار الشواف، الرياض، ١٩٨٩م.

- الأدب الوجيز للولد الصغير: تحقيق: محمد غفراني الخراساني، عالم الكتب القاهرة، بدون تاريخ.

www.mtenback.com

المكي الصقلي، أبو محمد محمد بن عبدالله بن محمد بن ظفر:

أنباء نجباء الأبناء: دار الآفاق، بيروت، بدون تاريخ.

المنذري، أبو محمد زكي الدين عبدالعظيم:

الترغيب والترهيب: تحقيق: د. مصطفى عمارة، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٧م.

ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم:

لسان العرب: مكتبة النوري، دمشق، بدون تاريخ.

وجدي، محمد فريد:

دائرة معارف القرن العشرين،: الطبعة السادسة، القاهرة، ١٩٧٣م.

الوطواط، محمد بن إبراهيم بن يحيى الأنصاري:

غرر الخصائص الواضحة: دار صعب، بيروت، بدون تاريخ.

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com